عبد الله البصيّص

ذكريات ضالة

رواية

عبدالله البصيِّص

ذكريات ضالة

عبدالله البصيِّص

ذكريات ضالة

روايـة

المركز الثقافي العربي

الكتاب

ذكريات ضالة

تأليف

عبدالله البصيِّص

الطبعة

الأولى، 2014

عدد الصفحات: 224

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-726-1

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 212 522 305726+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 ـ 01 352826

فاكس: 961 1 343701+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

الوفاء: كلب الروح

عبدالله الفلاح

مقدمة

بقلم الكاتب عبدالله البصيص

ما إن أنهيت مقابلة كاتبَ هذه السيرة (الرواية) حتى علمتُ، من قبلِ أن أقرأها، أنها عمل واقعي وصادم. أمّا كيف قابلتُه فهي حكاية أخرى، لا تقلّ غرابةً عن مُضيّي بها إلى دُوْر النشر، لأضعها -كما طلبَ مني- أمام مَنْ يرغبُ في طباعتها.

بدأ الموضوع عبر برنامج التواصل الاجتماعي «تويتر»، عندما راسلني حساب باسم «المعذّب» @alm3theb يتخذ صورة عرض لمجموعة كلاب ضالة، وطلب مني بتغريدة أن أقابله لأمر ضروري، تجاهلتُه في بداية الأمر، ليس استكباراً مني والعياذ بالله، وإنما لأن تويتر مكان افتراضي خالٍ من الرسميّة، يجمع كلَّ تناقضات شرائح المجتمعات بعبثيتها في الجدال، وهزليتها في الطرح، فالأمور به لا تُؤخذ -مهما بلغت من الأهمية- على محمل الجدّ. تجاهلته لأن التجاهل في صورته البسيطة اعتذارٌ صامتٌ مؤدَّبٌ، تحمله نفس الكريم على حسن النيّة، لكن بعد أسبوع أعاد «المعذّب» مراسلتي من جديد بثلاث تغريدات ملحَّة:

- @alb9ai9: أستاذ عبد الله، طلبت رؤيتك قبل أسبوع ولم تجبْني، لعلك لم تقرأ التغريدة، أو قد تكون تجاهلتَها، لا يهمّ، المهم هو أن تعلم أني جادّ في..

- @alb9ai9: هذا الطلب. لديَّ موضوع، وأعتبره أهمَّ موضوع بالنسبة إلي، بل إني أعلّق عليه أملي في الراحة، وفي مقدورِك مساعدتي على إتمامه، سأعذرك إذا رفضت..

- @alb9ai9: فأنا لو كنتُ مكانك لاستسخفتُ فكرةَ أن أقابل شخصاً طلب مقابلتي في تويتر، لكن صدّقْني أنا جادّ، وعلى استعداد لأن آتيك في أي مكان تريده.. لديّ قصة.

أردت تجاهله مرة أخرى، لكن عبارة «لديّ قصة» استولتْ على مساحة واسعة من فضولي، وأطلقت جماح تخميناتي التي بدأت أولاً بغربلة اسم «المعذّب»؛ هل هو في كسر الذال المشدّدة أم في فتحها؟ ثم راحت تستفزّ مخيلتي لبناء قصة تليق باسم «المعذّب» وصورة الكلاب الضالّة على مُعرِّفه.

قلّبتُ المسألة في رأسي: لماذا لا أتواصل معه؟ أيّ كاتب يطمح في الحصول على قصة واقعية جيدة ينفخ فيها من روح خياله ليجعلها مشاعرَ حيةً وعوالمَ حقيقيةً تفوق جمال عالمنا الذي نعيشُهُ وقبحَهُ.

تردّدتُ ليومين، كنت أفتح خلالهما هاتفي النقال على برنامج تويتر، وأتتبع تغريدات «المعذّب» السابقة، وأحلل الـ 14 تغريدة التي كتبها، والتي من ضمنها الأربعُ التي خصّني بها. بدا من أسلوبه

في بقيتها أنه شاعر، أو صاحب تجربة ناضجة في كتابة الشذرات أو الخواطر النثريّة.

وقد وضعت منها، أمام كلّ فصل، تغريدة رأيت أنها تصلح «كعتبة نص».

في الصباح أضفتُ حسابه، وأرسلت له رسالة خاصة:

- تفضل.. بماذا أستطيع أن أساعدك؟

ردّ متلهفاً على الفور، كأنه يعلم أنني سأكتب له في هذه اللحظة تحديداً:

- سأقول لك كل شيء عندما أراك، وأعدك أنني لن آخذ من وقتك الكثير.

فكّرتُ قليلاً قبل أن أوافق، قلتُ لنفسي: ما الذي يمنعني من دعوته إلى ديواني، فإن كان طلبه يقع على مقربة من يدي أعطيته، وإن كان بعيداً سمعت قصته واعتذرت له!

- أبشرْ.. حيّاك الله في ديواننا.

- لا.. أرجوك.. اعذرني، إلا إذا كان ديوانك يسهِّل دخول المعوّقين!

تعاطفت معه بعد هذا التلميح عن حالته، هو معوَّق إذاً، أي نوع من أنواع الإعاقة يكبّله؟ شيء ما بداخلي حملني على أن أقول له عازماً:

- إذا كان هذا مانعك فاخترْ أنت المكان الذي يناسبك.

- ما رأيك أن نتقابل اليوم عند الساعة الثالثة عصراً في مواقف أبراج الكويت؟

أبراج الكويت! لكنه معوق.. حسناً، لا بأس.

لم أفكر إنْ كان لدي موعدٌ في العصر أم لا، هل سأكون مشغولاً أم متفرغاً لهذا اللقاء الغامض والمفاجئ. لم أراجع نفسي بصواب القرار أو خطئه، عندما كتبت متحمساً:

- تمّ.

وقلت لنفسي: أجمل الأشياء تحدث بالمصادفة.

* * *

جلستُ متدثراً بمعطفي وزامّاً «شماغي» الأبيض حول رقبتي على الصبّات الإسمنتية التي تفصل الممر المبلّط، الذي يمتد على طول الواجهة البحرية، عن الشاطئ الرملي أمام أبراج الكويت الثلاثة، والتي بدت أحّاذة وفاتنة.

جلست أتلقى تيارات كانون الأول/ ديسمبر الهوائية الباردة بجَلَد، وأفكر بماذا ستكون القصة؛ هل ستكون متلاطمة كأمواج البحر خلفي، أم وطنيّة لتتماشى مع رمزية الأبراج؟ والتفتُّ أتأملها، سائلاً نفسي: لماذا في كلّ مرة أنظر إليها أشعر أنها بُنيت للتو؟ سامقة وعنيدة، لم يغيّرْها الزمن ولم تهزَّها المتفجرات التي حاولت عبثاً زعزعة ثقتها بأرضها.

ثمة من يجلس بعيداً عني، رجلان على ما أذكر، لستُ متأكداً على وجه التحديد، إنما لم يكن المكان بشكل عام خالياً بحيث

تكتمل شروط الوحدة. انتظرتُ عشرَ دقائق، تجمّد صبري أمام برد الكويت العنيد، الذي يستهدف الأطراف والعظام ويقضمها. حين هممتُ بالرجوع إلى سيارتي، لأحتميَ بها من غائلة الشتاء، وقفتْ أمامي في موقف المعوقين سيارة فان خضراء، ذات التصميم الخاص بأصحاب الاحتياجات الخاصة، تقودها امرأة كبيرة في السن، ترتدي عباءة سوداء، وتلفّ رأسها بالملفع الأسود. بعد لحظات فُتِح الباب الخلفي آلياً، وخرج منه جسر حديدي امتدّ حتى لامس الأرض وثَبت عليها، فخرج عليه رجل يدفع عجلات كرسيه المتحرك. هذا هو. تطلّعت إليه من بعيد وهو يلتفت يميناً وشمالاً، كان شاباً في نحو الثلاثين من عمره، ملابسه رياضية ثقيلة، وجسمه سمين بعض الشيء. رفعت يدي مؤشراً، فجاءني يدحرج عجلتَي كرسيِّه بيديه، فقمت لأساعده من باب الذوق. كان وجهه أبيضَ وشاحباً كأنه لم يتعرض للشمس منذ فترة طويلة، تفترش حَنَكَيْهِ لحيةٌ غير مشذبة، عيناه غائرتان، ويلفّهما جفنان رماديان مكتئبان، إنما هيئته بشكل عام لا بأس بها.

تصافحنا، ورفض أن أدفع عنه الكرسي، ثم رحنا نسير إلى مكان جلوسي. ومن السيارة، نزلت السيدة وهي ملتحفة بشال حليبي طويل، وجلستْ على أحد كراسي المشاة البعيدة عنا.

- أنا آسف، (قال بصوت مرتبك بدا عليه الإحراج) كلّفتُ عليك كلَّ هذه المسافة.

- تأسَّفْ لسيارتي التي حملتني.. لا عليك.

- كيف حالك؟

- تمام، وأنت كيف حالك؟

- لا أعرف.

ابتسمتُ استغراباً من ردّه، فأضاف:

- لكي أكون صادقاً معك، فعلاً لا أعرف كيف حالي، فأنا لا أشعر أنني بخير بمقاييسي أنا للخير، لكنني بخير بمقاييس الخير عند غيري.

كان رده سيثير فضولي لسؤال: ما مقاييس الخير عندك؟ لكن البرد لم يترك لي خياراً للاختصار، فقلت مداعباً:

- أهمُّ شيء هو أنك بخير على مقاييسي.

نفخ هواءً حارّاً من فمه بين يديه وفركهما ببعضهما، ثم قال:

- أخ عبد الله! أحتاج إلى مساعدتك في أمر.

- تفضل.. لهذا أنا هنا.

أَخرجَ ملفّاً حلزونياً أحمرَ، وقدّمه لي.

- ما هذا؟ (سألته).

- قصَّتي.

- وماذا أستطيع أن أقدم لقصتك؟

- أريدك أن تتدبّر أمر طباعتها، أريد أن يقرأها كل الناس.

أخذت الملف وقلّبتُه سريعاً، لا أنكر أنه ضايقني بطلبه، هل هذا كلُّ ما في الأمر؟ ملف حلزوني محشوٌّ بأوراق A4 سوّدها لون الكلمات المطبوعة، يريد أن يقرأها كل الناس!

- قلتَ عندك قصة!

- بالفعل، وهذه هي معك.

- أعتقد أنني فهمت الموضوع خطأ.. لكن.. حسناً، أنا لست متخصصاً في النقد، فإذا كنت مصرّاً فسأقرؤها وأعطيك رأيي.

فقال وقد بدت نبرتُه تسخن:

- لا أريد رأيك، أريد منك فقط أن تقدّمها لدار نشر.

صمتنا ينظر أحدُنا إلى الآخر، بدأتُ أشعر أن البرد يزيد التوتر إلى حدٍّ ما. ومن غير بعيد عنّا عادت المرأةُ إلى الفان، وأصبح المكان خالياً.

قال يعتذر:

- آسف على فجاجتي.

- لا بأس.. لم تقل لي ما اسمك؟

- سلمان.

- حسناً سلمان، الكاتب الجيّد يحرص على بناء اسمه، هناك كتّابٌ كثرٌ طبعوا في بداياتهم كتباً بدافع الحماس ورغبة تحقيق الذات، والآن صدّقني سلمان هم نادمون أشدّ الندم، لأن كلّ من قرأها ربما لن يعود لقراءةِ شيءٍ لهم مرة أخرى، فقدوا ثقة القارئ.

- ومن قال إني أريد أن أكون كاتباً وأن أبني اسماً، أريد أن تخرج قصتي من دون اسمي أيضاً، ولا أريد مردوداً مادياً.

أشفقتُ عليه من هذا الاندفاع، تفاقم تعاطفي معه. من الصعب الآن أن أقول له مع السلامة وأمضي إلى شأني، صحيح أنني لا أعرفه ولست ملزَماً به، إلا أن هناك روابط بين البشر أكبر من أن نقفز فوقها ونتجاوزها، هكذا خُلِقَتْ فطرةُ الإنسان، يتعاطف مع غيره

لأنه يرى -لا شعورياً- نفسَه فيه، فإذا هبّ لتقديم المساعدة فإنه في حقيقة الأمر يهبّ ليقدمَها لنفسه لا لغيره.

- سأدلّك على دار نشر جيدة، وتدعم الكتّاب المبتدئين.

- أستاذي، قلت لك أنا لا أريد أن أكون كاتباً، لماذا لا أحدَ يفهمني.. هذه قصتي أنا، قصتي الحقيقية، كتبتُها كما أملَتْها عليّ ذاكرتي، وطباعتها ومشاركة الناس بها أمرٌ يخفّف عني عذاباتي، مثل حِمْلٍ ثقيلٍ على كاهل رجل واحد ويريد المساعدة ليتخفّف منه، فكلما زاد الحاملون معه توزَّع الحملُ عليهم حتى يتلاشى نهائياً. قد تستغرب من طلبي، أو قد تشكُّ في سلامة عقلي، ولا ألومك، فأنا بالكاد فهمتُ دوافع نفسي لهذا الأمر!

كان في صوته شيء من الألم، ومن عينيه كانت ذراعُ غريقٍ تمدُّ كفَّ استغاثة إلى مروءة عيني.

- لا أعرف بماذا أجيبك!

- سأخفف عنك الأمر.. إن وجدتَها قصةً جيدةً وتستحق الطباعة فقدّمْها لدور النشر، وإن وجدْتَها غيرَ ذلك.. فأحرقها.

- سأحاول.. لكن، لم تقل لي لماذا اخترتني أنا بالذات، ولماذا لم تذهب لمراسلة دور النشر مباشرة؟

- لا أعرف أين هي دور النشر، ولا أعرف إجراءات طبع الكتاب، وكنت أتابعك في تويتر بالمصادفة، ووجدت أنّ لك تجربة في الطباعة والنشر، فقلت هذا هو.

- بالمصادفة؟!

- نعم بالمصادفة، ألم تقل إن أجمل الأشياء تحدث بالمصادفة.

تبسّمتُ استغراباً من هذه الجملة التي قلتُها بيني وبين نفسي قبل ساعات قليلة، كيف عرفَها، قد أكون كتبتُها في تويتر.. لست متأكداً.

- حسناً سلمان، أعدُكَ بأن أفعل ما بوسعي.

تصافحنا، فقال وهو يضغط على يدي بامتنان:

- على فكرة، لكي أؤكدَ صدقي معك، فإن اسمي ليس سلمان.

* * *

قرأت الملف في الليل، قرأته في جلسة واحدة، وأعدت قراءته في اليوم التالي. لم يكن الذي بين يدي قصة عادية، كانت دراسة حياة، أو محاولة تفكيك حياة، لا أعرف كيف أصف انبهاري بها، أو كيف أشرح قدرة كاتبها على رصف عالمه بهذه الطريقة المربكة والمعذبة والصادمة. رغم أنني لا أوافقه على بعض الأفكار فيها، ولا أبرر له هذا الحشد الكاره لطبيعة الإنسان وزيف مجتمعه، إلا أنني أشيد بطريقة سبكه القَلِق لهذا السواد المرصّع بالألم.

راسلته عبر تويتر معبّراً له عن إعجابي بهذا البناء المتماسك والملهم، لكنه لم يجب. توقعت أن اتصاله ببرنامج التواصل الاجتماعي محدود.

أوكلت الملف لأحد المنضدين وجهَّزه على ملف وورد، أرسلته لإيميلات عدد من دور النشر، جاءت العروض بعد شهر، واخترتُ أفضلها. راسلته مرةً أخرى لأبشّره بالخبر، لكنّ رداً لم يأتِ منه.

طلبوا عنواناً للرواية، راسلته، فلم يجب أيضاً، عكفتُ شهراً على مراسلته بلا ردّ؛ هل كانت غلطتي أنني تركته دون تسجيل رقم نقاله، أو أنه تعمّد ألا يترك أثراً خلفه؟ في كلتا الحالتين الأمر محيّر.

ألحّتْ دار النشر على عنوان للرواية، وعلى هوية رسمية لتوثيق العمل في الجهات المختصة. مرّ أسبوعان من الانتظار، فأخبرتني دار النشر بأنها لن تنتظر أكثر من أسبوع إضافي.

راسلته على العام، فقد يكون الخاص معطلاً أو فيه مشكلة!

أرسلتُ له هذه التغريدة:

- @alm3theb: أخ سلمان يا ريت تتواصل معي على الخاص أو ترسل لي رقم نقالك للضرورة.

فلم أتلقَّ أيَّ ردٍّ.

وجدتُ نفسي مضطراً، فبعثت لهم صورة جواز سفري للتوثيق، وبقي عنوان الرواية معضلةً، لأنني موقن أن عنوان أي رواية مهمٌّ بقدر أهمية الرواية ذاتها!

وضعتُ عدة خياراتٍ: المعذِّب المعذَّب، كلاب الجنان الضالّة، كلبٌ ضالّ، حياةٌ ضالّة، ذكرياتٌ ضالّة، سيّد الكلاب، كلبٌ ضالٌّ يهتدي.

وبينما أنا غارق في عملية الانتقاء جاءني «منشن» من حساب المعذّب في تويتر زجّ في رأسي حيرة لم تخرج منه حتى الآن!

- @alb9ai9: الخيار الخامس.

الموت ليس أن تهمد جثتك تحت كومة تراب، هذا شكل الموت وليس حقيقته، الموت في حقيقته هو الوحدة، هو أن تواجه حقيقتك موتاً لموت

@alm3theb

اليوم تمر سنتان على إعاقتي، سنتان على إقلاعي عن شروري، سنتان على اختناقي؛ سنتان من الزمان، أصبحتا ذكرى أجترّها بلحظات، وحيداً.. محاولاً الخروج من نفسي، والوقوف على مقربة مني، لأرى كيف سأبدو من دوني، ولأشكر هذا الذي احتمل كلَّ هذه المدة على أن يكون أنا.

لم أعد نفسي بعد الذي حدث، تغيرتُ إلى حد أُنكر فيه أنني كنت على ما كُنته، تَبدلتُ لدرجة يصعب معها معرفة ماذا أعرف، تَغَرّبتُ حتى أصبحتُ المنفى الذي نفيت فيه، فلا وجهي هو وجهي الذي كنت أعبس وأبتسم به، ولا عقلي عاد كما كان حاداً ومتغطرساً، حتى كمدي الذي في نظرات عيني، وبحّة الحزن هذه التي تطوح بحبلي الصوتي، وشهقة الفقد في صدري، كلها أجزاء

تجمّعت بي وكونت مني شخصاً غيري، شخصاً لم يعد لديه في الحياة شيئاً يغريه على مجاملتها في الاستمرار.

أنظر الآن من نافذة غرفتي إلى الخارج، السماءُ وما حلّق فيها، الأرضُ وما دبّ عليها، الأشياءُ وما يصدر منها، وتيارُ الحركة الأزلية المتواصلة الذي لا ينقطع، كلُّ هذا يتجه بشكل مجنون إلى الماضي، ويتحول إلى ذكرى. حتى هذه اللحظةُ التي أنظرُ بها إلى الخارج تتسرّبُ عبري إلى الماضي، في انهمارٍ مستسلم، وانجرافٍ تامٍّ، يشبه سقوطاً ممنهجاً في قعرٍ سحيقٍ، كلُّ لحظةٍ تمرّ يصبح الانغماسُ في القعر أعمقَ من اللحظة التي قبلها.

فكرة أنّ الزمان يَمضي بالأشياء، ويتسرّب عبرها إلى الماضي مخلّفاً أثره المتقادمَ عليها، تستحثّني لإلغاء كلّ شيء أمامي إلغاءً رمزياً يُسقطه من دائرة اهتمامي حتى لا يظلَّ لدي شيء ذو أهمية في الحياة. فلو لم يكن هناك أشياء لم يكن هناك زمان.. نقطةٌ، ما قبلها مستقبل، وما بعدها ماضٍ، وما يقع عليها هو الحاضر، إذا مُحيَتْ هذه النقطةُ فسيجد الزمنُ نفسه متشابهاً أمام نفسه، لا قبلُ ولا بعدُ، وكلّ لحظاته الآن، وسيفقد قدرته على تغيير مكوِّنات الأشياء، تلك القدرة التي منحتْهُ السلطةَ على أن يعطيَ لكل شيء شكلاً ومعنى، وسيصبح سهلاً كخيط البَكَرَة الذي نلفّه ونطويه متى شئنا، وهذا ما يجعلنا في سباق محموم مع الزمن، مع قتال غير متكافئ الأطراف ضد دقّات الساعة.. مع لحظيّة اللذة، ودهريّة الوجع، مع طول وقت الدمعة، وومضة وقت الابتسامة.

أتساءل أحياناً: لماذا لا يوجد شيء حقيقي مئة بالمئة في هذا

الكون؟ لماذا كل شيء يحتملُ فكرةَ نقيضِهِ أو أن يكون معاكساً لما نظنّه؟ هذا يبدو واضحاً لي الآن وأنا أتحسّس بقايا أساسات الجدران في ذاكرتي، وألمس على نحو جليٍّ مدى قدرة الإنسان على بناء السدود في رأسه ليحجب فكرة ما -كالشمس مثلاً- عن الرؤية، هذا ما جعلني أفقد ثقتي بعقلي، الذي -بدوره- فقد ثقته بحواسّي التي بدأت تشكّ بحقيقة العالم الذي لا نرى منه إلا ما نريد أن نرى، ولا نشعر منه إلا بما نريد أن نشعر، بحيث يكون لكل منّا عالمه الخاص المختلف، بكل شيء فيه، عن عالم الآخر.

أدحرجُ عجلاتي، أفتح النافذة الآن؛ السماءُ نفسُ السماءِ قبل آلاف السنين، الأرضُ هي الأرضُ عندما فعل أوّلُ إنسانٍ عليها خطيئةً، هي نفسها في منطقة «الجنان» التي نشأتُ بها في بيتنا القديم، قبل أن أغادرَها إلى هذه المنطقة الجديدة، الأرض نفسها التي حملتْ براءتي.. تحمّلتْ خطاياي.

سألتُ نفسي قبلَ كتابة غصّتي: «من أين أبدأ؟ .. من البداية.. حسناً، ولكن من أين؟»، لا ريب أن النهاية تحدثُ في البداية، لأنّ الحياةَ بطبيعتها دائرية ومتّصلة، كلُّ نقطة فيها تصلح لأنْ تكون بداية. إنما تظلّ هناك نقطة واحدة تنطلق كلُّ البدايات منها، وتجتمع كلُّ النهايات فيها، قد تكون هذه النقطة هامشية، وقد تكون مفصلية.

وجدتُها في ذلك المساءِ الشتويِّ الباردِ، قبل سنتين، في تلك الليلة الحمراء.

الانهيار

العتمة تعطي الأشياء من حولنا زخماً يحفز مخيلتنا على تصورها بنحو لم توجد عليه.. كذلك العقل إذا فكر في أشياء لا يفهمها فسيترجمها على غير وجهها

@alm3theb

كانت ليلةً حمراءَ قضيتُها في شقتي الخاصة، أتّقد مع فتاة مثيرة وأنطفئ، ليلة مكونة من: إضاءةٍ حمراءَ خافتةٍ تضفي على اللحظة نكهةَ الخلود، وتصبغ جدران الصالة الفسيحة بلون الوهم والإغواء.. ضحكة ممشوقة متغنّجة تجتاح أثاثها البسيط.. دخان سيجارة متوتر يرتفع كخيط مغزول ثم ينكث قبل أن يرتطم بديكور السقف.. صوت راشد الماجد يغنّي بفرح من سماعات الإستريو الموزّعة في الزوايا الأربع.. رائحة عطر نسائي ناعم وشبق، يقود المكان بأسره إلى السرير.. خصرٌ عارٍ ملتهبٌ يتمايل، وينثني، وينحني مع صوت الماجد باتجاهي، ثم يلتفّ ويبتعد ليوقدني أكثر.. كأس رشيق على الطاولة أمامي، مترع بسائل ذهبي تلمع في داخله مكعبات الثلج.

كنت في غاية الانغماس بتذوق شهوة تلك اللحظة المتألقة، وأخطو أولى عتبات السكرة، متجاوزاً كل ممنوعات الحياة الدنيا إلى فضاء الجنّة المفتوح على النعيم الخالي من القيود، حيث تنتهي المحرمات عن كونها محرمات، وتكف النواهي عن النهي، مطلِقاً العنان لبهيمية الإنسان في داخلي، تلك البهيمية التي تعدُّ جزءاً أساسياً في تكوينه النفسي من جهة، ومن جهة أخرى تعدُّ أصدق نزعاته وأجردها من المقاصد.

- اسقني كأساً أخرى (طلبتُ منها) املئيها وقلّلي الثلج.

تابعتُها بنظري حتى جلستْ تملؤها عند الطاولة.

- هذا يكفي.. هاتيه يا سيدتي واشربي معي، فهذا الخلود سينتهي بعد قليل، وسنعود إلى هاجس الفناء وإلى عذابات الصحوة وسخافتها.

- ها قد بدأتَ تهذي بالألغاز كما فعلتَ الخميس الماضي.

اقتربتْ مني، وأكملتْ وهي تحاول جرّي من يدي:

- سأخبرك شيئاً.. لماذا لا نعود إلى السرير ثانية ونعالج الأمر هناك؟

وضحكتْ بصوتٍ شهيٍّ، فسحبتُ يدي:

- ليس هنالك ألغاز، اجلسي ودعيني أشرح لك.. ليس هناك ألغاز، كل ما في الأمر أننا إذا سكرنا ننسى، وإذا نسينا نخرج من انطباعنا الأوّلي عن الأشياء، فنرى كل شيء بوضوح خارج أحكامنا السابقة، اشربي حتى تبتعدي عنك، وسترين أن الخمر يساعدنا على

فهم الحياة وحلّ ألغازها.. اشربي، فبعد قليل ستنتابنا الصحوة، وسنلبس ملابسنا ونخرج إلى الناس ونندمج معهم، وستعود لنا انطباعاتنا القديمة، وسيصير كل واحد منا لغزاً لا يفهمه الآخر.. اشربي عزيزتي اشربي واسقني كأساً أخرى.

- كفاك شرباً يا روحي، لأجل خاطري، لقد شربتَ الكثير.

- هذه ثاني مرة نسهر معاً، فما أدراك بشربي؟

- أوكي.. لا تتوتر.. جئنا هنا لننبسط.. سأعطيك كأساً أخرى ومعها قُبلة أيضاً.

رنّ هاتفي النقال بنغمة عسكرية مخصَّصة لرقم هاتف المخفر، أعطتني الكأس وخطفتِ النقالَ من فوق الطاولة ثم هربتْ بدلالٍ لتخبّئه في الغرفة، تقفزُ بقوامها الخلّاب فوق الوسادات المتناثرة، وتثبُ بطراوتها لتنثر فتنتها على شهوتي. تبعتُها، وكأسي في يدي، غيرَ راغب في إمساكها وقطع استرسالها الاستعراضي لحشدها الأنثوي. تسارعتُ خلفها حتى التقينا أمام السرير الذي تركناه قبل قليل على صورة أرض معركة سببّتها نوبةُ جنونٍ طارئة، احتضنتُها فانزلقتْ وارتمتْ على أرجائه.

قالت بدلع:

- لن تردّ.. لن يأخذَك مني شيء.. أريدك بكاملك معي.

ارتميتُ بجانبها، وقلتُ، بينما عيني تنزلق فوق مفاتنها الناعمة والطرية:

- لن تتحملني بكاملي.

- سأتحمّلك.

أجابتْ ثم أردفتْ، وخدّاها يزدادان احمراراً:

- سأتحملك بكاملك.

وأطلقتْ ضحكة غنجاء، تلاها رنينٌ آخر مزعج من هاتفي، لكن هذه المرة بنغمته الموسيقية الاعتيادية.

وقفتْ على السرير ترفعُ الهاتف بيديها، وأخذت ترقص على نغمته، كإصرار ملهم على عدم الرد.

توقف رنين الاتصال، فجلستْ على طرف السرير تنظر إليّ وهي تعض على شفتها السفلى، وبعد لحظة رنّ هاتفي بصوت تنبيه رسالة نصية.

أخذني إلحاح الفضول لمعرفة فحوى الرسالة، فضول أعلم أنني سأكون خارج الجو إذا لم أتمكن من إسكاته. طلبت منها أن تناولَنيه لأقرأ الرسالة فقط، وأغلق بعدها هذا النقال الفج إغلاقاً نهائياً حتى الصباح، فتثنّتْ وامتنعتْ بصمتٍ.

عاهدتُها: إنّه مهما كان الشيء التي تحمله الرسالة «فلن أدعك حتى تشرق الشمس وترضَي.. أعدُك». رضيتْ ومدّتْ الهاتف كأنها مغصوبة، فازدادت تألقاً، وازددتُ رغبةً.

كان نصُّ الرسالة يحمل خبراً أعادني إلى الحياة الدنيا مرة أخرى، إلى صلادة الالتزامات، وجدّية العمل، كأنني صدمتُ بحادث. وجعلني أشعر بخدَر غريب في جانبي الأيمن، صاحبتْهُ قشعريرةٌ صاقعةٌ سرَتْ في بدني بكامله، ثبّطت تفاعلات كيمياء الشهوة.

قفزتُ أرتدي ملابسي وألتقط حاجياتي المهمةَ بسرعة حصان هارب.

- إلى أين؟ أخبرني.. ما الذي جرى حتى تتركني؟!

تعجبتْ ووجهُها يحمرّ ويتقلّص من الغضب والدهشة وعدم الاكتفاء.

لم أجبْها، كنتُ أبحث عن مفتاح السيارة، وحين وجدتُه تحت الوسادة أخذته واتجهتُ نحو الباب بعُجالة. نادت من ورائي:

- ولكن أين وعدك؟

لم ألتفت إليها، قلت غير مكترث:

- أغلقي البابَ إذا خرجتِ.

كانت الرسالة من الرقيب أول نصار، وكان نصها:

«نقيب سلمان، تعال إلى المخفر بسرعة سيدي، ألقينا القبض على المنشار سيدي، أقسم إنه المنشار».

«المنشار»

صرختُ في المصعد أوْقِظ ذهني لمداهمة هذا الخبر. لم يكن خبراً عادياً، كان يزن انتهاء خمس سنوات من الخيبة المستمرة.

«المنشار» اللص الأسطوري الذي أربك وزارة الداخلية بكل إداراتها الأمنية، والذي أقلق كبار المسؤولين بسرقاته، وأذهلهم أكثر بأسلوبه الغامض في السطو.. وقع!

وقع لصُّ السيارات المحترف ومنفذ سرقات محلات الصرافة

منقطع النظير، الجريء الذي استطاع سرقة ذهب زوجة القائد العام للشرطة من غرفتها وشرب عصيراً في مطبخه قبل أن يغادر على متن سيارة ابنه مدلَّلة الثمن، تاركاً وراءه رسالة يدعو فيها قائد الشرطة إلى تخفيف السيطرة الأمنية على المناطق التي يسكنها الفقراء.

طافتْ برأسي ذكريات التنكر، والترصد، والتربص، والعمل الشاق، والفشل.

هذا الخُرافيُّ، الذي أشعرَ الأمنَ بحركةٍ واحدةٍ من عقله بجهلهم الراسخ، له بصمَتَه الخاصة والفريدة في الاستيلاء، وهي أنه دائماً يترك خلفه رسالة اعتذار للمسروق، كُتِبتْ بأسلوب رصين وقريب من الشعر، يطلب فيها منه أن يضع نفسه في مكانه الضيق.. وفي ظروفه الضاغطة نفسها، والتي يعدِّدها بشكل سريع، بوعورة الفقر، وثقل العِوَز، وعُسْرِ تأمين إيجار الشقة، الفائت والمقبل، وبُعْدِ الوظيفةِ عن يد حظِّهِ المبتورة، ليطلعَه أنه كان مضطراً حين أخذ سيارة من معرضه، أو مجبراً عندما أفرغ خزانته، ليرفع هذه الظروف عن كاهله المنهَك، ويختمها بأنه من فئة البدون، وعلى المجتمع تحمّل استخفافهم وعدم وقوفهم مع معاناته، متمنياً منه أن يعذره.

بصمتٍ وضعتُه في دائرة الأسطورة التي لا تصدَّق، ولا يمكن إثبات كذبها، وكانت التقارير الأمنية التي تكتب عنه لها اضطرابها الخاص والفريد أيضاً.

«الملعون»

تمتمتُ وأنا أجتاز بوابة العمارة.

هذا الذي أعجزَ الأمنَ حتى ساد اعتقادٌ انهزاميٌّ لدى جهلاء الشرطة بأنه من الجنِّ، وآخرون أقلُّ جهلاً برّروا خيباتهم أمامه بأنهم لا يشكّون في أنه يستعين بسكان العالم السفلي.

كانت عقول جميع زملائي الضباط تنهار -بمجرد اطِّلاعهم على ملف القضايا التي أُلصقت باسمه- لمثل هذه الخزعبلات الشعبية الركيكة، وكنتُ أحاول أن أنأى بعقلي عن هذه التهاويم، وأسندُه على ثقتي بنفسي فقط، حيث لا دليلَ يؤكد، ولا دليلَ يؤدي إلى النفي.

- بماذا تبرر اختفاء جسده عن كاميرات المراقبة؟ قال أحد زملائي ذات نقاش.

- ما هذه الحماقات؟ (رددتُ) العالم يتطور وأنتم رابضون.. ألم تسمعوا بأجهزة تشوّش على أجهزة المراقبة؟ استفيقوا.

زاد أحدهم:

- لماذا لا تصدق؟ .. حسناً.. اسمع هذه: أخبرني أحد الزملاء، وهو ثقة، بأنه في إحدى المرات طارده حتى أوشك على النَّيل منه، ولكنه لمّا اقترب من سيارته يريد أن يصدمها من الخلف، تفاجأ بقطيع إبل يمرّ أمامه ويحول بينهما؛ فلا تحدثْني عن المعقول.

- ها ها ها.. حتى الأفلام الهندية لم تصل إلى هذا المستوى من الغباء. رددتُ.

أضاف آخر بانزعاج:

- لا تستهنْ بنا سلمان.. ألا تؤمنُ بالسحر؟

- لا أعرف.

- كيف لا تعرف؟ إنه مذكور في القرآن.

- قلت لك لا أعرف، أنا أؤمن بعقلي المذكور في القرآن أيضاً.

- سأقول لكم سرّاً (قال زميل آخر بعدما تفقّد وضع نظارتِه الطبية فوق أنفه) أرجو ألا يخرج ما سأقوله لأحد غيرنا.. قبض عليه أحد أفرادي ذات يوم، وقيّده ثم أدخله في الدورية، ولكنه فجأةً (خفض صوته) وجد جسده يخرج عن سيطرته، ويقوم لاإرادياً بتحرير المنشار ويطلق سراحه.. (التفتَ إليَّ وأضاف) صدقني سلمان هناك أمور أقوى من العقل.

- وهل سجّل أوصافه؟ (سألته).

- للأسف (أنزل نظارتَه وفَرَكَ عينيه) مُحيت ملامحه من ذاكرته تماماً، وهذا ما أكد لي أنه يتعامل بالسحر.

- سأطلب منكم طلباً أخوياً (قلتُ مخاطباً الجميع وأنا أطفئ سيجارتي بالمنفضة وأهمّ بالذهاب) وأرجو أن تنفّذوه عن طيب خاطر: ابتعدوا هذه الأيام عن الحشيش.. ها ها ها ها.

«كيف وقع؟» تساءلتُ وأنا أدير محرك السيارة.

ممّا حيرني في أمره أن جميع شهود سرقاته يسمعون صوته ولا يشاهدون إلا ظلّه، وهذا ما لم يجد له عقلي تفسيراً منطقياً، وكلهم يتفقون على أنه لم يستعمل العنف، يطلب منهم بأدب بالغ الابتعاد عن طريقه حتى لا يضطر إلى استخدام مسدسه.

«ما نوع المسدس؟»، سؤال يتكرر في كل تحقيق.

«في الحقيقة لم نره»، إجابة تتكرر في كل تحقيق.

لم يره أحد، ولا نعرف اسمه أو أوصافه، كل ما نعرفه هو لقبه «المنشار» الذي أطلقه عليه أفراد الشرطة لأنهم زعموا أنهم رأوه يمزق شبكاً حديدياً بيديه الخاليتين ليفتح طريقاً للهرب.

أضفَتْ عليه هذه القصة صفةَ البطل في أعين البعض، وحُفّتْ سيرتُه بكلمات الإعجاب التي يبتكرها السُذّج لكل من يتفوّق على السلطة، فيرفعونه بكرم إلى درجة الأبطال، ويتسامحون بشهامة مع أخطائه.

ابتعد الكثير من الضباط عن طريقه مخافة أن يعرقل عجزُهم عن إمساكه إجراءات ترقيةٍ مستحقَّةٍ، واتهمتنا طحالبُ الصحافة وصعاليكُ بلاطها بأنّ هناك من يتعاون معه منّا ويسهّل له طريق الهرب بنصيب معلوم من ثمن المسروقات، ممّا ضاعف ضغوط رؤسائنا علينا، فازدادت الاتهامات بالتقصير والتقاعس في أداء المهام، حتى اتفقنا -كل ضباط الشرطة والمباحث- على إلقاء القبض عليه ولو لم يبقَ منا واحد قيد العمل.

كان الاتفاق يتضمن استخدام طرق غير تقليدية بالاستجوابات، تحت مسمى «تعزيز وسائل الاستجواب»، أكثر تطرفاً ممّا درجنا على استخدامه، وأخرى غير مشروعة فيها تجاوزات على القوانين الأمنية.

وبغضّ النظر من أمن الدولة، راقبنا خطوط هواتف المشبوهين، وزرعنا العيون على محلات الصرافة، وألصقنا عناصر المباحث بالقرب من معارض السيارات. قُدْنا حملات تفتيش عشوائية على السكراب، وزّعنا النقاط الأمنية في الأماكن المدلهمّة، اقتحمنا

الشقق التي تصدر منها رائحةُ ارتياب. تسبّبنا في اختناقات مرورية لوّت علينا رقاب السلطة العليا، فجاءتنا برقياتُ العمليات تأمرنا بالتخفيف من الاستنفار، لأن كل هذا الوجود الأمني الكثيف وتسيير هذا العدد الهائل من الدوريات غيرُ منطقي بسبب رجل واحد، ثم إنه يثير الهلع في نفوس المواطنين، ورحنا نضع هذه البرقيات في الأدراج ونستمر في البحث.

اصطدنا الكثير من مهربي المخدرات، ونبشنا العديد من شبكات الدعارة، بقوّاديها المرموقين وقوّاداتها الشمطاوات الداعرات، وعثرنا على مشعوذين بصورة رجال دين مطمئنين بالإيمان. ضبطنا سيارات مسروقة، عقاقير مخدرة. اكتشفنا مصانع خمور تقليدية. صادفنا عاهرات مسنّات، وشباباً صغاراً يتعاطون أخلاطاً غريبة ويمارسون الشذوذ، فتيات مثل قطرات المطر ينغمسن في الوحل، ربات بيوت عشيقات، آباء سكارى، نساء يرغبن بالنساء. كنا نجد كل يوم شكلاً قبيحاً للحياة، منظراً كئيباً للعالم البشري، يتجدد كل يوم بصورة تحدث بشكل أطهر في المجاري، نفايات بشرية تتراكم فوق بعضها كل مرة وترسّخ اعتقادنا بأن الإنسانية تتدهور إلى مزبلة.

اعتدنا على سقوط الأخلاق وانحطاطها بهاوية البهيمية، فبدت لنا أخلاقُنا، على ما هي عليه من عفونة، زكيّةً.

ومع هذا لم نحصل على أثر للمنشار.

- ليس هناك شيء اسمه المنشار. (أقول لزملائي بعد كل إخفاق).

بقينا قرابة شهرين من الترصُّد والترقب والتقصي، إلى أن وردنا خبر شاحب بأنه يخطط مع رفاقه لعملية جديدة تستهدف محل صرافة، لكن أين المكان والزمان؟ لم يحمل الخبر ما يفيد.

توقع المسؤولون أن المنشار لا يخبر أحداً من أعوانه بتفاصيل عملياته ريثما تأتي ساعة الصفر، فاحترزنا عند محلات الصرافة بكثافة، وتنكرنا بملابس الوافدين عند البنوك، انتصبنا خلف أعمدة الإنارة، فلم يحدث شيء إطلاقاً.

تسرب الملل إلى داخلنا، ثم تدفق بغزارة، حتى اكتست وجوهنا بملامح الإحباط والسخط. نُكِّست معنوياتنا، وتردّى حسُّنا الأمني، وكدنا نصاب بشلل في التفكير والتدبير، فأعلن قائد مباحث المنطقة العقيد إبراهيم إنهاء العملية قبل أن تتلف عقولنا ويخسر منصبه.

وبعد إنهائها بيومين وصَلَنا بلاغٌ بسرقة سيارة تحصيل أموال.

قال شهود الواقعة إنهم رأوا رجلاً، سدّ بسيارته الفيراري الطريق أمام شاحنة التحصيل المصفّحة، وفتح الباب بسهولة على السائق الآسيوي الذي انهمك في ابتهالات متوسّلة، لم يَمْسسه بسوء، فقط أخذ السيارة وابتعد، تاركاً وراءه سيارة فيراري فخمة، اكتشفنا أنها سيارة ابن القائد العام للشرطة.

- صف لنا هيئته. (أمرنا السائق الآسيوي).

فأجاب بعربية ركيكة:

- أنا ما يشوف وجه مال هو.

كان هناك بصيص أمل لكون سيارات تحصيل الأموال موصولة

بالأقمار الصناعية، غير أن الغد جاءنا بخبرها مشرَّعةَ الأبواب في منطقة صناعية.

- ليس هناك شيء اسمه المنشار.

في بداية أمره اعتقدتُ، نظراً إلى اضطراب المعلومات ومعطياتها، بأنه أسطورة خيالية أكثر من كونه شخصية حقيقية، وقلت للعقيد إبراهيم ذات فشل بأنه لا يوجد هناك شيء اسمه المنشار، نحن مَن صنعنا هذا الاسم، ووضعنا له تصور الإنسان الخارق، ثم أطلقناه على كلّ مجرم نخيب أمامه، لنحتفظ ببقية ماء في وجوهنا عند كبار المسؤولين الأمنيين.

- مثله كمثل الشيطان، اخترعه عقل الإنسان تحت ضغط كبير من شعوره بالذنب ليتخفف من أعباء ضغوط ضميره.

أجابني العقيد وهو يمدّ إصبعاً محذراً:

- انتبه لكلامك ملازم أول سلمان، لا تهرطق. ثم إذا أردتَ أن تصل إلى الحقيقة، أي حقيقة في العالم، لا تؤكد شيئاً، بل شُكَّ في كل شيء، والشك سيقودك إليها.

هاتفتُ نصار وأنا أقف عند الإشارة الضوئية، فجاءني صوته الغليظ يؤكد لي بنبرة تكاد تشبه نبرة عواء كلب مسعور:

- نعم إنه هو، أقسم بالله إنه المنشار مقيّد أمامي في المخفر.

- ابتعد عنه قدر المستطاع، وخُذْ حذرك.

في نهاية المطاف وصلتُ إلى أنّه كذبة أمنية لإشغال المواطنين عن قضايا الفساد في الحكومة، وها هو يتبين أنه حقيقة من لحم ودم.

(هل تخلى عنه سحره؟ أخيراً وقع ابن الكلبة!) صرختُ، وسكرة الخبر تأخذ مكان سكرة الخمر، وانتشيت بكامل وعيي بينما سيارتي تشق الطريق الدائري الخامس، بعواميد إنارته الصفراء في ليلة من أشد ليالي الخميس الشتائية برداً، بأقصى سرعتها متجاوزاً السيارات -بوميض الفلشر السري- من السالمية متجهاً إلى المخفر.

لم أستطع تخيل منظره وهو مكبّل بالسلاسل مثل حيوان أسطوري، كنت مشتت الذهن، فكّرتُ بجنون: سأقبّل رأسه أولاً، ثم أضع حذائي بحلقه، وأتركه بعد التعذيب لشذوذ الرقيب أول نصار.

لم أستطع الانتظار حتى أصل، اتصلت بنصار مرة أخرى، فوجدتُ جهازه خارج منطقة التغطية بتأثير من أجهزة تمنع اتصال الأجهزة الخلوية في قسم المباحث الملحق بالمخفر.

كان الحماس والفضول يضغطان على قدمي لزيادة السرعة. اتصلت بالعقيد إبراهيم لأقدّم له الخبر، أجاب بعد الرنّة الخامسة، فوجدتُه غارقاً في ليلة حمراء في شقّته الخاصة، جاءني صوته مترعاً بالويسكي ومحاطاً بأنغام موسيقى راقصة.

- ماذا هناك؟

- ماذا هناك!! هناك خبر يسعد ليلتك.

- أخبرني ولا تفسد مزاجي.

- قبضنا على المنشار.

- ماذا تقول؟

- أقول قبضنا على المنشار.

- بربِّك، هذا ليس وقت شطحات الخمر.

- تعال إلى المخفر وانظر بنفسك.

- هل أنت جاد سلمان؟

- أنا جاد في أنّ الرقيب أول نصار اتصل بي وأخبرني بأنهم قبضوا عليه.

- دعك من هذا المعتوه الأحمق.

- أعرف عواءه إذا كان متأكداً، وهذا ما كان عليه صوته.

- أين أنت الآن؟

- في طريقي إلى المخفر.

- إذاً تأكد من الخبر بعينيك وأبلغني.

* * *

في المرة الأولى التي رأيت فيها العقيد إبراهيم، كانت أيضاً المرة الأولى التي حضرت فيها تحقيقاً للمباحث، وجدتُه يقف مزهواً كطاووس ببدلة رياضية بالقرب من كرسي التحقيق، والذي كان يجلس عليه وافد عربي كبير في السن متهم بقضية سرقة، ينتصب فوقه اثنان من أفراد المباحث، لم أعرف أنه العقيد، لأنه يبدو في سن أصغر، وحين دارت أيدي التحقيق على وجه الوافد المتهم، اعترضتُ حينها على الضرب، فللعمر احترامه مهما يكن، فزجرني العقيد بصوت قاطع، وأمرني بالخروج حالاً، انفعلتُ ورفعتُ صوتي مستفسراً مَن هو حتى يكلِّمني بهذه اللهجة! أعلمني أحد الأفراد بأنه

القائد العام لمباحث المنطقة، فخرجت نافخاً صدري بحقدي عليه، ومغلقاً الباب خلفي بقوة.

في الصباح التالي، طلبني إلى مكتبه في القيادة، وجلس ببدلته العسكرية بجانبي، وكان وجهه الصارم، ذو الشارب المصبوغ والمحدَّد بإتقان، يحاول التودُّد إليّ بتصنّع. وبصوت هادئ راح يشرح لي قاعدته التي أصبحت قاعدتي الأولى بعد ذلك:

- الخطيئة نوعان: غير متعمّدة ومتعمّدة.. غير المتعمدة يا سلمان لا يعاقب عليها القانون إلا إذا أتلفَتْ أملاكاً، أو أخذَتْ أرواحاً، ويكون عقابُها مخففاً، أما المتعمدة فيُنظر إلى دوافعها، فإن كان دافعها شراً فهي شرٌّ حرامٌ يعاقب عليه القانون، وإذا كان دافعها خيراً، فهي شرٌّ مباحٌ يتغاضى عنه القانون إذا كان في مصلحته.. هل فهمت الآن لماذا لا يؤنّبني ضميري وأنا أقفُ على ما اعترضتَ عليه؟

هززت رأسي متفهماً، وشربتُ معه فنجانَ قهوة، حدّثني أثناءه عن تاريخه المهني بشكل موجز، ثم استأذنته بالانصراف، وقبل أن أفتح باب المكتب ناداني، وقال مبتسماً:

- هل أخبروك بأن الوافد الذي اعترضتَ على تعذيبه أمس اعترف بأنه قتل خادمة بعد أن فعل بها.

أصبح العقيد بعد ذلك اللقاء يقرّبني منه أكثر، ويمهّد لي الطريق إلى رضى القيادات العليا، فرحتُ أتبع أوامره، وأنفّذها مهما كانت مشروعيتها، حتى حصلت، بفضله، على منصب ضابط مباحث مخفر.

قال لي يوماً إنه يرى في وجهي الهادئ قلباً قُدَّ من حجر البراكين، استفهمتُه كيف رأى هذا؟ فقال إنّ لديه فراسة اكتسبها من أعوام خبرته الطويلة، وابتسم وهو يقول إنني أذكّره بنفسه عندما كان في مثل رتبتي.

لكنني الآن أعلم أن السبب الحقيقي وراء كل ما قدّمه لي هو أن أكون تابعاً مطيعاً له.

دعاني ذات ليلة إلى حضور حفلة خاصة في شقته التي لا يعرف أحدٌ من الذين يعملون معه شيئاً عنها، كدليل على ثقته بي، فكانت أوّلَ حبل يُعقد حول شهواتي ويجرّني إلى إشباعها كلما جاعتْ للمجون.

ليلة لا أنساها، ولا أنسى وجه العقيد عندما استقبلني عند الباب، مبتسماً وخالياً من صرامته الرسمية، ومرتدياً بدلة رياضية يستعرض بها شباب صحته. أخذني من يدي، وهو يدير بلسانه أسطوانة الترحيب، وقدّمني إلى أربعة رجال جالسين في الصالة الفسيحة، التي احتل بار صغير زاويتها اليمنى، بجانب الممر المؤدي إلى غرفها الثلاث، والتي توزعت اللوحات الزيتية ذات الرسومات الهندسية على حيطانها. فاجأني العقيد بهم:

- أعرّفكم على مساعدي الملازم سلمان بدر الراجي.

رحَّبوا بي، بينما أعينهم تهبط من رأسي إلى قدمي بتغطرس.

- أعرّفكَ على العميد فيصل، والعقيد صالح، والعقيد سلطان، والدكتور محسن.

استغربت لدى رؤيتي كؤوس الخمر تلمع بين أصابعهم، الخمر ممنوع في الكويت ويعاقب عليه القانون، وهؤلاء رقباء القانون ومطبّقوه.. ينتهكونه. انتبه العقيد إبراهيم لتردد نظراتي المستغربة على كؤوسهم، وقال مازحاً:

- لا تكن مثالياً يا فضيلة الشيخ سلمان.

جلستُ بينهم وشعور الضآلة أمام رتبهم يدرك اعتزازي برتبتي، تحدثوا عن مشاغلهم الأمنية، ثم غيّروا الموضوع إلى أنواع السراويل النسائية، ثم إلى السياسة الداخلية للدولة، وخاضوا في حديث رياضي عن فريق برشلونة ولاعبيه، وعن إشاعة هروب صدام حسين إلى الأردن بعدما فقدَ الأميركيون أثره في العراق، ودخلوا في فرضيات كونه عميلاً سلّم بغداد بأقل تكلفة، وفي كل هذا كنتُ صامتاً أبتسم مجاملة لنكاتِهم، وأهزّ رأسي موافقاً لآرائهم. حتى رنّ جرسُ الباب، فقام العقيد يفتحه، وعاد ومعه القوّادة أم نسرين تتبعها فتياتُها الجميلاتُ. أدخلَتْهُنَّ في إحدى الغرف ليجهزن، وجاءت تجرّ شحومها في الصالة الفسيحة إلى أن جلستْ بيننا، رمقتْني بنظرة متكهّنة، ركّزتْها أخيراً على كأسي الذي ملأتُه بعصير البرتقال بدلاً من الخمر، رسمتْ ابتسامةً صفراءَ على وجهها المملوء بألوان مساحيق التجميل الصارخة، أخذ لهاثُها يخرج من فمها ومنخاريها متوتراً ريثما ركد، فقالت للعقيد بصوت مكتنز بالكولسترول:

- أوو.. لدينا صديق جديد هنا؟

رفع العقيد إبراهيم كأسه يحييها، وعرّفها بي:

- هذا ملازم سلمان.

وأخذ شربة من الكأس، وكمجاملة أردف وهو يخصّني بنظرة ارتياح:

- أعتبره ذراعي اليمنى في العمل.

- رائع.

قالت ووجهها يحيكُ ابتسامة منافِقة، ثم زادت بحماس:

- جئتَني بجديد، وجئتُك بمجموعة جديدة.

أخفضتْ صوتها كأنها تقول سرّاً مبهجاً:

- جئتُك بفتيات، يُجِدْنَ عصر الرجال لآخر قطرة.

وبصقتْ ضحكةً فاسقةً في الهواء.

- سلمان، ما بك منكمشاً هكذا كالعذراء؟

قال العقيد مستغرباً تقوقعي على استحياء، وأكمل ضاحكاً:

- ما بك يا رجل؟ لا تقلْ إنها أوّل مرة.

بصقتْ أم نسرين ضحكة فاسقة أخرى، وقالت:

- دعْهُ يرى أولاً.

ونادت:

- يا بنات، تعالَين كلكن.

جئن يُتكْتِكْنَ بكعوبهن العالية على الأرضية السيراميكية، وبلباسهنّ القصير والملهب لحواس الذكورة، والذي يبرز، على نحو مدروس، تضاريس الأنوثة وتزلزلاتها.

أخذنا نفساً عميقاً، حتى إن العقيد رغم اتِّزانه المعهود أفلتت منه «واااااو» بشكل مشتهٍ.

اعتدلنا انبهاراً بمجموعتها الشهيّة، وكنتُ قد أفرغتُ عصير البرتقال تماماً، وأخذتُ أكسر بأسناني الثلجَ المتبقيَ بالكأس وأبتلعه.

أمرَتْ أم نسرين إحداهن وهي تغمز لي بعينها:

- هيّا املئي كأس هذا الشاب الجميل بشيء يجعل منه شيخ الرجال، ثم اجلسي بجانبه، فالليلة سكر ورقص إلى الصباح.

ازداد تعرّقي وحيائي وبهجتي، حتى بدا ارتباكي واضحاً ومضحكاً، جاءتني فتاة متمردة بكأس ويسكي وقدّمتْها إليّ، أخذتها فوراً، فغمزتني بخبث:

- لك الليل يا ذئب.

وكأن الانحراف موجود منذ قبل هذه اللحظة في نفسي، كأنني أسترد تجارب السكر والعربدة من النسيان. شربت أول كأس في حياتي من الويسكي، تلك الليلة بلا تردد، كما لو أنني أستكشف جزءاً قديماً بداخلي وجدتُه بالمصادفة.

لذعني طعمها النفاذ والقوي، صدمتني بتوقُّدها في البلعوم وبحرقتها وهي تجري في المريء حتى تنطفئ بالمعدة، وبصعودها المتدرج في الرأس، واستحواذها على الحواس. لم أتوقعها قوية لهذا الحد الذي فشلتُ معه في مُداراة تقلص وجهي. رحتُ أتطلع إلى لونها الذهبي بعد أن تختلط مع الثلج، وأتجرعها مرة واحدة. شربتُ تلك الليلة، وشربتُ وشربتُ، حتى وصل رأسي إلى السماء الأولى، وبدأتُ أرى الحياة من بعيد، وأنفكّ من توتري والتزامي

بكل شيء، قامتِ الفتاةُ تحثّني بفتنتها على إفراغ المزيد من الكؤوس، حتى فلتُّ عن إرادتي:

- لماذا لم تخبروني من قبل بهذا الفرح؟ أشعر أنني في الجنة يا نااااس.

ارتفعت الأصوات بالضحك وبدأ الجميع بالنكات:

- ستشعر بعد قليل بأنك إنسان محترم.

- بل ستشعر بأنك إنسان.

- دعك منهم واشرب حتى تراهم بشراً.

- أين الموسيقى؟ (صاحت أم نسرين) لماذا جوكم عزاء هذه الليلة؟ هيا يا بنات، لتشغل إحداكن الإستريو وتُرينا ليونة عودها.

وما إن اشتغلت الموسيقى على أغنية خليجية بارعة، حتى قامت الأجساد تهتز وتتمايل، في الصالة، كأنها تتألم.

صاحت بي أم نسرين وهي تعُبّ من كأسها:

- لماذا لا ترقص؟

التفَتَتْ إلى العقيد، كان جالساً يداعب فتاة:

- هل ضابطك شاذ؟

ضحك العقيد بطريقته الرسمية وصاح:

- سلمان.. افعل شيئاً.. ارفع يدك هكذا على الأقل.

ورفع يده ولوّح بها جيئة وذهاباً في الهواء مع إيقاع اللحن، ففعلتُ مثله.

عندما استيقظتُ في الصباح، وجدتُ رأسي يؤلمني، وشعرت بدوار وغثيان وإرهاق، وبكل اعتلالات الجسد، ووجدتُني نائماً في إحدى غرف شقة العقيد، وعارياً تماماً على سرير مزدوج.

* * *

ركنتُ سيارتي أمام باب المخفر، وجدتُ شعور الانتصار مفروشاً على ابتسامات فريق الشرطة، لم أكن حريصاً على تغطية رائحة الخمر المنبعثة من أنفاسي، فالكلّ هنا لديه استعدادٌ نفعيٌّ متبادلٌ لتقبُّل أخطاء الآخر لأنه في حاجةٍ إلى تقبُّل الآخر لأخطائه.

استقبلني الرقيب أول نصار بابتسامةِ فكّيهِ العريضين، فظهرت أسنانُه التركيب الخزفيةُ ببياضها الفاقع، لتعطيَ مع وجهه الداكن وضخامة جسده القصير مظهر كلبٍ بوليسيٍّ مفترسٍ:

- من حضر؟

- أنا والصهيوني سيدي.

- أين بقية الأفراد؟

- اليوم خميس كما تعلم.

- أبناء قحاب ليس منهم فائدة، اتصلْ عليهم كلباً كلباً، وأخبرهم بأنه إن لم يحضروا الآن فسيَروا مني ما لا يسرّهم.

لغا تحت أذني ونحن نجتاز باب المخفر الزجاجي:

- البشارة يا سيدي.

أجبته حانقاً:

- ماذا تريد؟

- أنت تعرف ماذا أريد!

تطلعتُ إلى وجهه الغليظ، وخمّنت:

- لا بد أن المنشار وسيم!

* * *

كنتُ قد اكتشفتُ شذوذ نصار قبل أربع سنوات؛ وذلك عندما كنا نداهم أماكن المشبوهين من ممارسي الدعارة وباعة الخمور ومروجي المخدرات وهم متلبسون وبضاعتهم تستقر صارخة تحت أقدامهم، فنقبض عليهم ونجرّهم مكبّلين إلى المخفر لنهيئهم للاعتراف بطريقتنا الخاصة؛ وقد لاحظت بعد إحدى المداهمات أن عدداً ممن نقبض عليهم ينقص واحداً عندما نصل المخفر؛ تكرَّر الأمر أكثر من مرة، فاندلعت الريبة تشعل شكوكي، لم أخبر أحداً بهذا النقصان الغامض. أسررتُ لنفسي فقط:

- هناك من يرتشي.

وفي إحدى مداهماتنا ليلاً لشقة مشبوهة، وبعدما تأكدت من القبض على تسعة مروّجي حشيشٍ معاً، تركتُ المكان لعناصر الأمن ليسجّلوا المضبوطات، وتظاهرتُ بالعودة إلى المخفر، ثم تربّصتُ خلف العمارة، حتى بدأت إجراءات إخلاء المكان من عناصر الأمن، فلاحظت أن عدد المتهمين الذين ركبوا الدوريات نقص واحداً، لم أندهش، قلتُ في نفسي:

- الآن سينكشف الأمر.

أمر قائد الفرقة بالتوجه بهم إلى المخفر، استمررت بالتربّص

ريثما عاد السكون وازداد الليل حلكة، فعدتُ ألتمس السبب في الشقة التي وقعت فيها المداهمة. وبخطوات حاولتُ أن أخفّف صوت وطئها على سيراميك الأرضية، تجاوزتُ الباب المخلوع، وكان موصداً على نحو ساتر، ومن خلفه كان النور ينبعث واهناً لا يعين البصر، وعندما توغلتُ في الداخل سمعتُ لهاثاً ساخناً يخرج من إحدى الغرف، تحسستُ مسدسي بيدي وفتحتُ زرّ الأمان، وتقدمتُ على حذر حتى تراءى لي جسدٌ عارٍ من نصفه الأسفل يفترش جسداً آخر تحته، كان المشهد غائماً ولم أتمكّن من تمييز الأشكال جيداً، انتظرتُ برهةً إلى أن تمدّد بؤبؤا عينيّ، وتحسنَّتِ الرؤيةُ، فاستطعتُ أن أميز وجه نصار رغم تقلصه الملتذّ وتكوّن الزبد على شقّي فمه، رأيتُه يمتطي رجلاً آخر، غائباً عن العالم في غياهب الفاحشة، لم ينتبهْ لوقوفي بضع خطواتٍ منه، ووجدتُ الرجل الذي تحته مقيّداً ويدفن وجهه بين يديه باستسلام مخزٍ ويئنُّ بألم مع كل كَرّةٍ يكرُّها نصار فوقه.

في الحقيقة لم يؤسفني المنظر الخارج عن القانون والمنافي للطبيعة، ليس لأنني راضٍ عنه، بل لأنني درجتُ، بطبيعة عملي، على تكرار رؤية الانحدار الأخلاقي، حتى لم تعُد نفسي تستغربه من بشر، ومع هذا وجدتُ بي حينها رغبةً مشفقةً في أن أصرخ عالياً لأبقيَ على بعض الحياء في العالم:

- يا حيواااان.

قفز مرعوباً من فوق ضحيته، وأخذ كلٌّ منهما يستر عورته بسرعة تعثّر معها اللبس بصورة سليمة.

وقف نصار أمامي وعلى وجهه علامة تكاد تكون غير بائنة للحرج، ومن خلفه طأطأ الرجل الآخر رأسه كأنه يريد للأرض أن تنشق.

وبعد لحظة ثقيلة من الصمت نطق نصار بصوت خالٍ من الحرج:

- اعذرني يا سيدي.

- اطلب العذر من القائد لا تطلبه مني.. وأنت (موجهاً كلامي للرجل الآخر) هل بينكما معرفة من قبل.

لم يرفع رأسه، ظلت رجولته منكّسة:

- لا.. لا أعرفه.

ثم اعترف بصوت متهدّج بأن الرقيب نصار، بينما نحن مشغولون بجمع الممنوعات، أخذه إلى الغرفة الأخرى عندما خلت من إجراءات التفتيش، وخبّأه تحت السرير بعدما اتفق معه على الثمن المقابل لإفلاته.

قلت:

- يجب أن تذكر هذا بالتفصيل أمام المحقق.

فسقط كالمكسور على الأرض، ثم وضع وجهه بين ركبتيه وبكى، بكى بكاءً أخرج شفقتي من عزلتها التي حاولتُ إبقاءها بها.

- أرجوك خذني كمهرب ولا تأخذني ك..

كانت تلك آخر مرة، لسنوات، أشفق فيها على أحدهم.

رُبِطَ لساني، فلم أعرف ماذا أقول لهما! فكرّتُ.. هل

أضربهما؟ هل أرسلهما إلى القيادة مرفقَين بتقرير وشهادة من الرجل المنكوب الذي لا يزال مقيداً ومهزوماً ويبكي؟ شعرت بأنني عاجز وبأن ضميري يلفظ أنفاسه الأخيرة.

أعطيتهما ظهري ونزلتُ لأقود سيارتي إلى المخفر وعقلي مبعثر في رأسي.

اكتشفت بعدها بأشهر، عندما داهمتُ إحدى شقق الإيجار اليومي ذات صباح، وقطعتُ خلوة العشاق المراهقين، اكتشفتُ كم هو الرقيب أول نصار ذو منفعة واستعداد تام لتلبية طلباتي، وقمت أستخدمه ككلب مطيع في ترويض ضحاياي من المراهقات اللواتي تسربن من حصص الجامعات والمعاهد ليستمتعن في ساعات عشق رومانسية وهن عرايا في أحضان عشاقهن.

كنت أتلذذ بإذلالهن قبل إخضاعهن لشهوتي، وكان نصار يمدني بالجو الملائم، فكان يفرغ المكان من الأمن بعدما يرسل معهم العشاق، ثم يطلب منهن الاتصال بذويهنّ، وهنا أتدخل أنا، بعدما أرى دموعهن المتوسلة، وأقدم مساعدتي للتستر عليهن بشروط ماجنة.

- لماذا تفعل بهن هكذا يا سيدي؟ سألني أحد أفرادي.
- أليس هذا ما جئن هنا من أجله؟ أجبته.
- معك حق. هزّ رأسه مقتنعاً وذهب.

وهكذا، بتُّ أتغاضى عن صفقات نصار التي يعقدها مع المتهمين، وعن طرق تعذيبه للمجرمين الوسيمين.

* * *

تبعني نصار يلهث بين دخان سيجارته، حيّاني من خلف مكتب الأحوال بعض عناصر الشرطة المترهلين، رددتها بهز رأسي مع ابتسامة متعالية، إذ يتعين علينا أن نبقي بيننا وبينهم عزلة كما هي العادة بين رجال الشرطة ورجال المباحث في كل العالم. استدرنا إلى اليسار وسلكنا الممرّ الذي يقع في آخره باب أسود حديد تقف عنده صلاحيات الشرطة وتستمرّ صلاحياتنا بتفرّد. مشيت وصدى وقع أقدامي على أرضيته الرخامية يتردد في الزوايا، أحب هذا الصوت، يشعرني بأنني مليء بالقوة. التفتُّ إلى النظارة، في منتصف الممر، بقضبانها المتصالبة، وبرائحتها الكريهة، لم تتغيّر منذ رأيتها أول مرة، يقبع في داخلها بعض الآسيويين؛ نساء ورجال يتخبطون في البؤس، قطعوا صلتهم بالفرح منذ زمن.

يفتح الباب الأسود على أكثر جزء متكتّم من أجزاء العالم، تمارس فيه صلاحيات مطلقة خالية من القيود وممّا يظن البشر أنها حقوقهم التي تميّزهم عن الحيوانات. أجلْتُ بصري على غرفه الأربع بمساحاتها الكبيرة؛ مكتبي، ومكتب أفراد المباحث، ومكتب الأرشيف والسجلات والملفات الأمنية، وأخيراً غرفة نسميها «الكازينو»، وهي غرفة عملياتنا.

دخلت الكازينو وخلفي الرقيب أول نصار يهيّئ رغبته الحيوانية الشاذة. المكان واسع وخالٍ تماماً إلا من منضدة في وسطه ودولاب في زاويته اليسرى من الباب. جدرانه مبطّنة بألواح عازلة تحبس الأصوات من الفرار، ومطلية بلون رمادي كامد، تزيده إنارة قضبان النيون إثارة للمخاوف.

وجدت المنشار مطأطئ الرأس وهامداً على كرسي التحقيق، وكان الرقيب علي «الصهيوني» يقف فوق رأسه ويمضغ علكة.

علي الصهيوني هو الرجل الأضخم في قسمي، شيء غامض وغريب الأطوار، لدرجة أنه يعتدي على زملائه إذا انفجر به الغضب سواء بسبب أو بلا سبب. وهنالك إشاعة سمعتها قبل أن أراه تقول إنه قتل متّهماً أثناء التحقيق معه بعدما أغضبه ببصقة على وجهه، فتلاحق فريق المباحث، الذين معه، بأن واروا المتهم بتقرير مزيّف ادّعى أن سبب الوفاة جرعة مخدرات زائدة. لم يؤكد هذه الإشاعة أحد، حتى هو نفى عندما سألته ذات مرة عن صحَّتها، لكنني لا أستبعد أن تكون حقيقة، لأنني أعرف أنّ له مزاجاً دموياً معقداً وعقلاً خاوياً من الأحلام، عموماً أنا أعتمد عليه في استخراج المعلومات الغائرة في ذاكرة المتهمين، وقد أستخدمُه في استخراج أحلامهم التي أرغب في وجودها بالمحضر. فلضرباته الهستيرية الأثر السحري في فتح خزائن الصدور واستخلاص الأسرار المذكورة والمنسيّة. نسمّيه «الصهيوني» لأن الرحمة ضلّتْ منذ زمن بعيد طريقها إلى قلبه، ولإبداعه في ابتكار أساليب غير مطروقة في «فنّ التعذيب» كما يسميه.

رؤية وجهه المتجمِّد والخالي من التعابير، عيناه اللتان تشبهان عينَي متآمر، والشقة العريضة البارزة بينهما، رأسه الحليق، ساعداه الصلبان والمشعران، وقبضته الغليظة الخشنة، كان هذا كله كافياً لدفع المشبوهين إلى الاعترافات أو ابتكار اعترافات جديدة.

اتَّجهت إلى الجسد المنكمش كعقب سيجارة مدهوس، والذي

شبّك يديه المقيدتين على المنضدة في استسلام بطولي. دقّقت النظر في وجهه المستدير، وكان الدم يرشح من أنفه، وعلى زاوية فمه خيط أحمر ثخين. يبلغ من العمر على الأرجح ثلاثين عاماً، تقاسيم وجهه بارزة وسيماها الذكاء، وهي تنسجم في تناسب بريء. لاحظت أثر جرح قديم، يبدو من آلة حادة مرت على جبهته بما يعطيه شكلاً قابلاً للإجرام. قامته رشيقة منتفخة العضلات ونافرة العروق، كأنه سبّاح أولمبي، شعره أسود مرتب على نحو ما، لحيته محلوقة بعناية، بدا أنه يعتني ببشرته لنضارتها، شاربه خفيف فوق شفةٍ عليا رفيعة، يرتدي ثوباً أبيض فُصّل من قماش غالٍ كما تقول نصاعته، أحدث «الصهيوني» بعض الأضرار في الجيب العلوي وفي الأزرار، ويرتدي ساعة رقمية على معصمه الأيسر، وجدته على نحو لا بأس به من الوسامة.

لم أصدق أن هذا هو المنشار الذي دوّخ وزارة الداخلية، لكن خبرتي تقول إن اللصوص أكثر الناس اهتماماً بالمظاهر.

بقي هناك شيء غامض لم أعرفه في سواد عينيه الواسعتين وندبته التي على الجبهة، وهو أنّه يذكّرني بشيء نسيتُه.

سألت الصهيوني:

- هل أقرّ؟

فأجابني وهو يمضغ علكته ووجهه خالٍ من أي تعبير:

- حتى الحجر يقرّ.

سألته مستفسراً أكثر:

- هل اعترف بأنه المنشار؟

- لا يعرف شهرته، لكنه اعترف بكلّ السرقات التي فعلها، أعطني ساعتين معه فقط وسيخرج منه المزيد.

- هل أنت الذي سرقتَ ذهب زوجة القائد العام للشرطة؟

وجّهتُ له السؤال وعيني تقرأ تفاصيل وجهه، طريقة اكتسبتُها من ممارستي الاستجوابات، مهما كان ما يخفيه المشبوه، تجد بعض الاعترافات طريقها إلى الوجه لا إرادياً. لا بد أن يتسع بؤبؤ عينه وتتقلص زاويتها، أو تتنبه حواجبه برعشة، أو يميل حنكه قليلاً أثناء النفي، أو يطرأ تغيير بإيقاع رمشه، هنا يجب أن أستخدم أسلوباً آخر لاستخراج ما يخبئه، يجب أن يشعر بالألم أكثر.

رفع رأسه ببطء وتكلم بإجهاد وبلهجة متألمة:

- نعم (سكت قليلاً ثم أكمل) نعم أنا.

صوته عميق وواثق رغم بحّة الوجع فيه، وكانت قراءتي تفيد بأنه صادق فيما قاله. ركز نظرتَهُ بعيني، كأنه يقرأ تفاصيل وجهي، شعرتُ بأنّه ارتفع عن قدره قليلاً، صفعتُه، ودفعتُ الكرسيّ ليسقط ويتلوّى على الأرض، فركله الصهيوني على وجهه، ثم وضعتُ حذائي على حلقه، وقلت بغضب:

- أخيراً يا ابن الكلبة المسعورة وقعتَ، خمس سنوات (رفستُه على صدره، وأكملت) خمس سنوات ونحن نلهث وراءك لهاث الكلاب (رفستُه على بطنه، فسعل وتقيّأ بوقت واحد) سأدفنك بنفسي بعد أن أكسر اعتدادك برجولتك.

– هذا جزاؤه، فلْيُرِنا رجولته بالسرقة بعدها. (قال الرقيب أول نصار).

أجلسناه على الكرسي من جديد، وتناوبنا عليه الصفع واللكم، كلما أراد أن يقول شيئاً أنزل الصهيوني ضربته على حنجرته فتقطع حبل خروج الكلمات وتتركه يتدلى بنوبة سعال.

تدحرج على الأرض، فارتميتُ فوقه أكيل له اللكمات، كان جسده ينقبض من مواضع الضرب ثم يتمدد وينكمش. شعرت بنوع من الخفة العميقة تستولي عليّ، تبعها ارتعاش جميل لم يلبث أن حلّتْ محله نشوة عارمة لأصوات اللكمات وآهاته المكتومة، فكانت كل آهة تزيد هيجاني وكل ضربة تهدّئني، إلى أن انتابني ذاك الإحساس الحقيقي بعظم جسدي وبأنه يستمد قوته من ذاتي.

لم أقم عنه حتى فقد وعيه، وشعرت بالاطمئنان والسلام بالإضافة إلى صفاء ذهني.

خرجتُ من الكازينو وأنا متعب، ولذة التعذيب تحلق بطعمها السكري في حلقي، طعم انقلب مع تكراره الطويل من المرارة إلى الحلاوة. قد يكون نوعاً من الإدمان، كأن يدمن المرء الإجهاد في المشي أو الجري يومياً فيشعر مع مرور الوقت بأن هذا الإجهاد قد استحال إلى راحة يطلبها الجسد بإلحاح، لكنه معي هو شعور بتحقيق الذات وبامتلاك القوة والسلطة معاً، ثم ممارستهما في وقت واحد باستمتاع جهنمي، وهذا يشعرني بأنني متجدد ولا أُهزَم، وكل شيء يستقر تحت قدمي.

أشعلت سيجارة في مكتبي، وتناولت فنجان قهوة يعيد رأسي

إلى مكانه الصحيح. نظرت حولي إلى الطاولة المطلية باللون البني الداكن، ويصطف حولها طقم مكتب من الجلد الطبيعي هدية من العقيد إبراهيم عندما صدر قرار تعييني ضابطَ مباحث المخفر، وإلى صندوق الأمانات المستقر في الأرض، والذي أقفله على مسدسي، نظرت إلى الورود الاصطناعية التي تقف في حاوياتها الصغيرة يمين باب مكتبي، كأنها تؤدي تحية زائفة، وإلى الرفوف التي تحمل صلابة مفاتيح السلطة القانونية، بجانبها خزانة الملفات الخاصة بالقضايا التي أنهيتها، والقضايا التي لم ينهِها أحد بعد.. من هذه الأشياء البسيطة أستمد سلطتي.

اتصلت بالعقيد إبراهيم وأبلغته أنه المنشار.

- أخيراً اصطدناه.. إنه حقيقة وليس خيال.

- تكتّم على الخبر، سأستحم وآتيكم.

عدت إلى «الكازينو» فوجدت المنشار قد استعاد وعيه، كان جالساً على الكرسي كبرج منهار، تأمَّلت وجهه المتوجع وهو متشنِّج من الصفعات، لم يبك إلى الآن كما ينتهي الحال بالآخرين، وهذا ما أثار في «الصهيوني» شعور التحدي، وجعله يفتح الدولاب بسعادة تكاد ترسم وجهه الصلب بشكل طفولي، ويُخرج «عدة المختبر» كما يسميها، وهي مكوّنة من سياط وعصي وكماشات وبطارية سيارة وأسلاك كهربائية وحديدة مخروطة على شكل قضيب ذكري وأشياء أخرى دقيقة لها استخدامات متعددة.

طالما كنت أتكئ بظهري على الجدار، وأراقب عملية استخراج

المعلومات بتلذُّذ، ولا سيما إذا كانت تجري مع شخصية تتعالى على الألم؛ تُحبَس الأنفاس ريثما اللحظة الأخيرة والمثيرة التي يسقط فيها التمثال ويتخلى عن كرامته. هي مسألة وقت، لذلك كنا نلعب عندها بالتخمين:

- كم سيصمد هذا المتهم أمام الصهيوني؟

ولم يكن يهم ما إذا كانت الاعترافات صحيحة أم أنها مختلقة تجنباً للعذاب، المهم أن يُكتب في التقرير شيء ما تغلق به قضية طال زمن فتحها.

خصني المنشار بنظرة متوسّلة، تلك النظرة التي تصيبني بالزهو، وأطأ من أجلها القامات وأتخطى الحواجز.

سيكون من الخطأ تماماً التصور بأنني شاذ عن الفطرة، فما هي فطرة الإنسان أولاً؟ ولماذا نحن متأكدون من أنها مخلوقة بصورة مثالية؟ في كل تاريخ البشرية هنالك أبطال شاذون، مهووسون بالقتل والإجرام، نقدسهم ونضع اللوم دائماً لتبرئتهم على مسار التاريخ الذي رماهم بمشكلات لا تُحلّ إلا باستخدام العنف. قد يكون هذا انطباعي عن الإنسان أكثر من كونه تساؤلاً واقعياً عن ماهيته، لكن ألا تفترض كتب الأديان بالبشر الضلال والشر، وتحاول جاهدة جرّهم بالترهيب والترغيب إلى مواطن الخير، لماذا إذاً نستغرب الانحراف وهو جزء من تكوين النفس البشرية؟ لماذا لا نستغرب الاستقامة؟ فهي الأبعد عن الفطرة.

ازدادت نظرات المنشار اقتراباً من وجهي، بينما «الصهيوني» منهمك في ترتيب عدته على المنضدة، همس بشيء لم أسمعه؛

كلمات خرجت من زمن آخر غير الذي قيلت فيه، كأنه يقوم بقراءة طلاسم سحرية يحاول بها امتلاكي، اقتربتُ منه وصفعتُه، ثم صرخت:

- ارفع صوتك.

فقال بصوت مسحوب من قاع بعيد في الذاكرة:

- أنت سلمان بدر الراجي؟

كنت أعرف أنه يحمل زمناً نسيتُه، أعرف أن الزمن لا ينتهي بانقضائه، لكنه يجد صوراً أخرى يكرر بها نفسه بابتذال، تملّكني شعور غامض لا يريد الإفصاح عن ذاته.

تراجعتُ إلى الوراء، فزاد:

- ألم تعرفني؟

تزعزعتْ أركان ذاكرتي، وحركت الصور التي فيها لأقترب من صورةٍ تحفِّزُ عقلي لمعرفته، قلتُ في نفسي: (أنا أعرفه، لكن من هو؟)، لعله يستخدم أحد أساليبه الإيهامية المتقنة بمساعدة قوى أخرى كما يقول البعض، لكنني متيقن من أنني أعرفه. كانت جلسته مألوفة لدي، أمر غريب أن أجد جلسة أحدهم مألوفة، طاف في خيالي صورة فتى في العاشرة من عمره يجلس على كرسي المدرسة ويبتسم في اتجاهي، قرّبت وجهي من وجهه أدقق به أكثر، أقرؤه على مهل.. أصبح وجهانا على مستوى واحد، سقط علينا القدْر نفسه من ضوء النيون القادر على كشف الخدوش المكتسبة من شيطنة الطفولة والمخفية تحت طبقة البشرة بشكل تكون فيه قريبة من الاختفاء. قلت بهدوء:

- من أنت؟

قال بصوت مجروح:

- بربِّك سلمان ألم تعرفني حتى الآن؟

توقف الكون كله عن الحركة للحظة، حتى نبضُ قلبي توقّفَ، بل وحتى عقلي تباطأ، إنه هو، إنما كيف يكون هو، لا أعرف، لا شك أنه هو، بل لا يقين أكثر من هذا، قلت بما تبقى بصدري من نفَس:

- أنت حميد.. أنت حميد شاكر.

زفر زفرة وخفض رأسه إلى الأرض، وقال:

- نعم سلمان، أنا حميد شاكر.

كان الدويّ هائلاً في أعماقي، تلاه صمت عميق سيطر على نبضي، حتى «الصهيوني» توقف عن تهيئة أدواته وشاركنا الانغماس في السكون بعدما رأى وجهي لأول مرة في حياته خالياً من الكراهية، وتكسوه الشفقة. سالتْ ذاكرتي، وتحرك الراكد فيها.

كنت أتأمل وجهه، قلت في نفسي: (أخيراً وجدته)، ونطقت بصعوبة:

- ما الذي فعل بك هذا؟

لم يجب، نظر إلى السقف، ثم نكّس رأسه ثانية، وبكى كما ينتهي الحال بالآخرين، غير أن نظرته قالت لي: (وأنت أيضاً ما الذي فعل بك هذا؟).

فجأة لمعت الذاكرة، اخترق الوعي نظام الزمن، النظام الذي

يتقدم إلى الأمام في كل وقت، ولا يرجع إلى الوراء إلا في الذاكرة وبشكل وهمي. انهارت سدود الذكريات، فانهمرت المشاعر تقوّض في طريقها كل ما يمتّ للواقع بصلة.

ومن البعيد ارتفع سور مدرستي بمشهد حصة رياضة، وصاح صوت ناصر مدلول يناديني: (مرِّر الكرة يا أناني).

إنها الطفولة حيث تبدأ لعبة الحياة.

التكوين

الإنسان ذكرياته

@alm3theb

1

رائحة إسفلت تظهر على نحو حقيقي في أنفي كلما مرَّ اسم مدينة «الجنان» في بالي، مدينة تقع باستراتيجيتها المناطقية في شمال الكويت، عندما يشير سهم البوصلة إلى أجمل الاتجاهات الأربعة، حيث نجحت الدولة في وضعها بمكان ملائم، على بُعد شارع واحد من السجن المركزي، مكان لا ريب بأنه يرفعها في أعين المساجين إلى مستوى جنان الآخرة. لا هي قرب البحر، ولا هي بعيدة عنه، في الوسط حيث تقع خير الأمور. تهبُّ رطوبة البحر، فتتصارع مع جفاف البر على جوّها، والنتيجة هي جوّ معتدل في أغلب شهور السنة، تتخلله موجات غبار ينفثها البر عبر حركة رماله المتوترة، ويجود علينا بصفته خلاءً بهجرات عشوائية من الكلاب الضالة.

كل صورها المحفوظة في ذاكرتي تشرق الشمس في خلفيتها دائماً، بمدارسها المقرفصة على صدرها بزهو، ببيوتها ذات الطابقين، وألوانها الصفراء والبيضاء والحمراء، والمرصوصة مثل

المعلبات على رفوف البقالات، بشوارعها المتفرعة كأوردة المخّ، بأعمدة إنارتها البيضاء والمغروسة على حواف الأرصفة، والتي كنا نرى أن من حقنا كسرها في أي وقت تنضب فيه مصادر اللهو، بساحاتها الترابية التي لا تخلو من مرمى كرة قدم وفريقين تثير أرجلهم الحافية الغبار، أو من مجموعة صبية اصطفّوا تأهباً أمام دائرة مخطوطة على الأرض لإصابة «التيَل» البلورات الزجاجية المصفوفة بعناية في منتصفها بغية إخراج إحداها من الدائرة كما تنص قواعد اللعبة غير المدوّنة للفوز، بأزقّتها الترابية الداخلية الضيقة التي شهدت أول تجاربنا في التدخين، بجدران محولات الكهرباء التي تحمل أسماءنا بشكل توثيقٍ عبثي؛ ليست أسماءنا التي في الأوراق الثبوتية، وإنما تلك الواقعية والأكثر صدقاً، والتي اخترناها لبعضنا كتعبير باطني عن رفضنا لسلطة الآباء؛ والتي تكون في الغالب مرحة. كانت الشوارع مليئة بالأطفال، وكان الأطفال مليئين بأجزاء مختلفة مصغرة من العالم، ليس عالم الكبار الجاد طيلة الوقت، بل عالم يختلف باختلاف طرق اللعب ويمتاز بانعدام الاكتراث.

هي منطقة جديدة، لم تشهد الحزن، تجاورت بها شرائح متعددة جاءت من أعراق متفرقة، كل ما يربطهم ببعضهم أنهم مواطنون، وزّعتها الحكومة بعدما مضغتها وابتلعت ربع مساحتها المنصوصة، لم يجد هذا اعتراضاً من أحد لأن ثلاثة الأرباع المتبقية في حدِّ ذاتها أكبر ممّا يطمح إليه السكان وأوسع ممّا يحلمون به. كلهم رأوا بها سكناً واسعاً لا يتيحه لهم ضيق رواتبهم مهما ادّخروا منها. طرحوا

بها عن كواهلهم ثقل إيجار شقة، وهمَّ انتقالٍ مستمرٍ، ووجدوا فيها مستقراً لعوائلهم حديثة التكوين، ثم تفرغوا -بدافع غريزي من الشعور بالأمان- للإنجاب، فكثر الأطفال، وكثرت معهم تكاليف المعيشة، فاضطر بعض أرباب الأسر إلى عزل ربع مساحة المنزل وتأجيرها بسعر مناسب يضمن لهم دخلاً شهرياً إضافياً يرفع عنهم بعض أعباء المصاريف. وهكذا جاءت أسر أخرى تحمل أطفالها، فتفاقم ابتهاج الشوارع، وكَثُرَتْ طرقُ الألعاب، فكانت حياة مفعمة بالبراءة، صبغتها السائدة هي الطفولة، لكنها لم تكن تخلو من المنغصات، فالأهل دائماً لهم أسلوبهم الفلسفي لفهم الأشياء حسب تعريفهم لدور البشرية الذي يحافظ على الأرض.

* * *

أذكر رائحة الأصباغ في بيتنا، وأذكر أرضياته «الكاشي» قبل أن نفرشها بالموكيت، وسقف غرفه الذي تتدلى منه أسلاك الإضاءة وقواعد المراوح، أحببت منزلنا الذي يتقدمه سياج خشبي يؤطر حدود واجهته الأمامية الصغيرة، أذكر جيداً كيف كان طعم التراب فيها قبل أن ترصف بالكاشي، وعلى نحو شاحب أذكر كيف كان العمال يركّبون الأثاث تحت سياط شتائم أبي لرداءة عملهم.

لكن أمي تستبعد أنني أذكر شيئاً من هذا على الإطلاق، لأننا عندما سكنّاه سنة 1982 كان عمري ثلاث سنوات، وهي حسب تقديرها سنّ لا يمكن أن تحمل ذكرى، لأن العقل الموجود في رأس الطفل يكون بصورة سائل لزج، فأقول لها بأنني أذكر حتى لون بابنا البني، قبل أن يطليه أبي بالأسود والذهبي، فتضحك وتعلل:

- لعلك سمعت هذا من والدك يوم كنت في الخامسة وتوهَّمت أنك رأيته.

أمي تجد لكل شيء علة، ولكل حدث مصدراً، أعتقد أني ورثت منها اعتزازي بعقلي، ولهذا كنت أستخف بالأشياء الغيبية التي يعوزها إيمان كامل.

ذات نقاش معها عن طفولتي التي كانت ترفض فكرة أنني وعيتُها في سن مبكرة، قلت لها إنني أذكر أخي منصور، الذي كان يكبرني بسنتين، وأذكر تحديداً كيف مات متأثراً بجراحه بعدما دهستْه سيارة أمام بيت جدّي، شيء غريب أنني لا أحتفظ له إلا بهذه الذكرى الغريبة، لم أكن أكملت ثلاث سنوات بعد عندما رأيتهم يركضون به. أخبرتها عن لون بنطاله الأزرق القصير، وحذائه الرياضي ذي الرباط المشدود، وتسريحة شعره المفروقة من الجنب، قصصت عليها كل التفاصيل بدقة، عن صريخ إطارات سيارة كبحت سرعتها فجأة، عن صياح بشري متكسّر النبرة انطلق من البعيد يخبر بحدوث شيء يجب ألا يحدث، عن دبك خطى تجري إلى مكان الحادث، وعن كرة زرقاء توقفت عن الدحرجة للأبد. بعدها لم نتناقش عن طفولتي نهائياً.

ذكرى أخرى في حياتي تظهر على شكل يقع بين الحقيقة والخيال، وهي أني كنت في سيارة أبي، تحديداً على الكرسي الأمامي بجانب كرسي السائق. كنت أبكي وأنظر من زجاج النافذة لأبي وهو مطروح على الأرض وتركله أربع قامات رجالية، كان يتلوى ويعتصر وجهه من شدة الألم، ويشتمهم بلا هوادة.

لستُ متأكداً إن كان هذا قد حدث، لكنني أعتقد إلى حدٍّ ما أنه كذلك.

* * *

كان عالمي المعروف ينتهي عند باب بيتنا، ثم يبدأ بعد ذلك العالم الآخر الذي يولّد لدي رغبة مبكرة للاكتشاف، والتي يقمعها باستمرار هاجس «الحرامي» المتربّص، الذي زرعته أمي في رأسي الصغير، وتركت له باباً مفتوحاً في أحلامي، يتسلل منها بعينيه الحمراوين وأسنانه الحادة، ثم يأخذني ويهرب بعيداً، ولم يكن ينقذني منه سوى يدها وهي تمسح على رأسي، فأجد أنني كنت أبكي أثناء النوم.

كبر هذا الحرامي معي، وتعددت في كلِّ مرحلةٍ شخوصُهُ وصورُهُ وتكاوينُهُ، وبقيتْ مشاعرُ الخوف التي تغزوني برهبتها ثابتة، حتى انتهى في آخر المطاف على صورة: الموت.

كنت أقف عند الباب وأنظر إلى كل شيء يحدث لأول مرة، كأن الكون يتشكل أمامي بصورة سحرية، كالتي تحدث في مسلسلات الكرتون: يهز الساحر ذو القبعة السوداء عصاه، فتحدث ومضة يخرج منها بيت، فيحرك العصا مرة أخرى، ومضة ثانية فتنمو شجرة برتقال، ثم ينزع قبعته فيطير منها حمام وتقفز مجموعة أرانب، ويخرج في الأخير من القبعة رجل يأخذ عصا الساحر ويهرب.

تابعت جمال الشمس وهي تسقط ذاوية خلف السطوح، (من يجرُّها إلى الأسفل؟) أتساءل، فأبحث عن حبلها الذي يتصل في مخيلتي بيد خفية تشدّه، فلا أجده. اتّسعتُ ببصري مع السماء حتى

حسدتُ تمكّنَ الطيور منها، واستعظمتُ طريقة الشجر في فتق بطن الأرض حتى خِلْتُ أنني كنت نباتاً، تأملتُ ظلي الذي يشبهني ويقلدني بغرابة. كان طريق الكون مليئاً بالأسئلة، وكان عقلي يحبو بين مسافاته اللانهائية.. ليتني أستطيع وصف براعة الكون في الاتساق والكمال الغرائبي عندما رأيتُه أول مرة، لكن خيط الكلمات يقصر عن نسج معانٍ تُوائم عِظَمَ دهشتي.

كل شيء جديد، وقت كنت جديداً.

رأيتُ العالم باندهاش يفتح مغاليق الأسئلة الأبدية التي وُجدتْ في عقل الإنسان المؤقت، وتساءلت: أين هذا الساحر الذي خرجنا من قبعته؟ كنت أبحث عنه في كل شيء!

سألت أبي، وهو منهمك بجسمه الهزيل بإطعام حَمَامه في البرج الخشبي الذي بناه فوق سطح البيت، بينما سيجارته تشتعل بدخانها بين شفتيه:

- لماذا الحَمَام يطير وأنا لا أستطيع؟

فقال بلا مبالاة:

- الله جعله يطير وجعلك تمشي.

مدَّ يده يفتح إحدى الخانات، فقلت أستزيده:

- من هو الله؟

نفض سيجارته بإصبعه، وقال كمن يريد الانتهاء:

- الله الذي خلقنا وخلق الحَمَام يا ولد.

- ولكن الحَمَام يطير ونحن نمشي!

استفهمتُهُ مستغرباً أن يكون لشيئين مختلفين خالق واحد، فانفجر في وجهي صارخاً:

- لا تزعجني الآن.. دعني أطعم الحَمَام، وانقلع العب عند أمك.

مزاج أبي الاجتماعي صعب، فلم يكن له أصدقاء ولم يكن له أعداء، الجميع متساوون في نظره، ولهم القدر نفسه من الضآلة، إلا قلة من أصدقاء هوايته المحببة: اللعب بالحَمَام.

يعتبر الحَمَام أجمل ما خلق الله، تليه الكلاب، فهما شغله الشاغل وهمه الدائم الذي لا يعلوه هم. روتين اهتمامه بهما لا يتغير؛ فعندما يعود من عمله، وكان موظفاً في البلدية، يأخذ قيلولته، ثم يصحو بعد صلاة العصر ويصعد إلى الحَمَام فوق السطح ليقضي معظم وقته محلّقاً معه برأسه، ومبتسماً بغبطة إذا أعجبه منه حركة راقصة في الهواء، نافثاً برضىً دخان سيجارته التي لا تنطفئ إلا والأخرى تخرج من علبة السجائر وتشق طريقها إلى شفتيه الغامقتين.

لم أره يصلّي طيلة حياته، حتى في الظروف الاضطرارية التي يجد الإنسان نفسه مرغماً فيها على الاستعانة بقوة الله، كان يدير لها ظهره وينفخ دخان سيجارته في الهواء غير مبالٍ بما ستنتهي إليه. وكان يقول عادّاً على أصابع يده لمن ينصحه بالصلاة:

- لم أسرق في حياتي كلها، ولم أزنِ، ولم أغشّ، ولم أرتشِ، ولم أضرّ مخلوقاً من مخلوقات الله حتى أطلب المغفرة.

ويزداد إصراراً فيقول بانفعال:

- أيهما أفضل عند الله؛ من لا يصلي ولا يؤذي عباده، أم من يقوم من نومه لصلاة الفجر وهو يسرق أموال الناس ويأخذ زكاتهم ثم يمسح على لحيته ويقول تصدقوا يغفر الله لكم؟

كان يكره المتدينين، ويعتبر مظهرهم غطاء يُخفون خلفه سلوكاً منحرفاً، وإلا لماذا يتشبهون بالصالحين إن كانوا هم صالحين؟

لا أنسى تلك المرة التي نهاني فيها عن ارتياد المسجد مع جارنا أبي معاذ، الذي كان يأخذني مع أبناء شارعنا إلى ندوات المسجد، وبصق عليه أمامي ثم أخرجني جرّاً بيدي من المسجد، حتى توقف بي عند الباب وقال:

- إذا أردتَ أن تعبد الله فاعبده بعيداً عن هؤلاء «الخصيان»، هل تفهم؟ بعيداً عنهم.

رأيتُه مرة واحدة ساجداً سجود شكر، مرة واحدة فقط في عمري كله، وكاد يغرس حينها جبهته في الأرض ليُنبتَ بها شكراً. سيأتي ذكرها في موضعها.

أمّا أمي فهي امرأة تحب العمل، تقدس المسؤولية، وترفع من مستوى معاني الواجبات، تعتني بكل ما يمكن أن يعتني به البشر، وهي تضع نفسها المسؤولة عن تصرفاتي، فإذا أخطأت أنا فهذا يعني لديها أنها هي التي أخطأت، وإذا أصبت تشعر بالرضى من نفسها.

لا أقدر أن أصف أمي، فالأم مثل الأشياء السماوية التي نستخدم الكلمات لنقرِّبها إلى الفهم فقط. لا أستطيع القول إنها طويلة أو قصيرة، جميلة أو مليحة، سمينة أم رشيقة، لأن الأم دلالة

ثابتة في كل اللغات، جهة واحدة في كل مكان، ووقت واحد في كل زمان، لا يعتريها نقص ولا تشوبها شائبة، كيفما كانت، لا أستطيع وصفها بأكثر من: أمي.

كانت دائماً مشغولة بتحضير الدروس لطالباتها في المدرسة، تدقق في دفاتر ما، أو تصحح أوراق اختبار، وعندما تفرغ تنصرف إلى ترتيب البيت، فتهتم بشتلات الورود عند مدخل الباب الداخلي، تسقيها الماء، وتشذبها أحياناً، وتضع لها الأسمدة إذا رأت أن نضارتها ضعفت، وتحرص على إطعام البلبل المعلّق في قفصه على حائط الصالة، وتتابع تنظيف فضلاته، وتبخّر البيت كل عصر بلا انقطاع، وتحمّمني بماء بارد لأنه في رأيها يقوي المناعة، فإذا فرغت مني انصرفت إلى إحصاء النواقص، وتجهيز المائدة، وبعد الانتهاء من العَشاء، تجلس معي بأوراقها البيضاء، وترسم لي أحد أحرف الهجاء، ثم تطلب مني نسخه بدقة.

كان الأمر يتطلب مني وقتاً طويلاً ومُجهِداً لحواسي التي لم تعتَدْ على الالتزام والقيام بشيء جاد، فبالكاد احتمل مرارة تدريبات الروضة الرتيبة، حتى تأتيني تدريباتها الضاغطة للأعصاب، فجعلتُ في كل مرة أراها توشك على الانتهاء من غسيل أطباق العشاء أهرب إلى غرفتي وأتصنّع النوم.

أصبحتُ وحيدهما بعد موت أخي، ولا أزال وحيدهما حتى الآن.

* * *

حدث بينهما فجوة مكانية وزمانية، لأمر أجهله، وما زلت لا

أعلمه، فسكنتُ مع أمي في بيت جدّي لخمس سنوات، لا أرى أبي إلا في الأعياد، وهي الأوقات الوحيدة التي يغيّر فيها ثوب النوم «البيجامة» ويرتدي الثوب الرسمي مع الغترة البيضاء التي يلفها فوق عقاله كيفما اتفق.

وهناك أنهيت الروضة، ودخلت المدرسة، واجتزت المرحلة الابتدائية بلا ذكريات تستحق التذكّر، كل ما هنالك ومضات متشابهة، قصاصات متكررة من صحيفة الذاكرة: حليب الصباح، تمتمات جدتي على سجادتها، سيارة أمي، دموعي عند باب المدرسة تلتمس الرأفة منها بلا أدنى بادرة، حقيبة مدرسة ثقيلة، مدرّس منزعج، رنين جرس، ازدحام الخروج، وخز إبرة في مؤخرتي، رأس قلم رصاص مكسور، نجمة بقلم أحمر على دفتري، منبطح أمام أمي أكتب، غلاف سنكرس، رائحة بخور، رسوم متحركة على التلفاز، يد أمي تضع العشاء في فمي، معطفي، أستحم بماء بارد، رائحة كاز، مدفئة تتوهج، أشجار ونخيل، خطوات جدي تجرّ عمره المسنّ عند الباب، طعم دواء مر، عربة آيس كريم مبهجة، ألعب مع أبناء خالي وخالاتي في الحوش، مقص حلاق منفرج، حديقة الحيوان، ملابس العيد، وجه أبي -متسوّلاً- يزورني، أقع عن دراجتي الهوائية، أعمدة إنارة شارع بيت جدي، طيارة، ألعب مع أبناء خالي في بلاد غريبة، نخيل ونخيل، خيط حذاء مربوط.

* * *

عادت العلاقة بينهما في آخر يوم مدرسي أنهيت به المرحلة الابتدائية، واستأنفنا العيش في بيتنا من جديد، ولم نعد وحدنا،

عدنا معنا شيء جديد؛ مخلوق ذو بشرة بنّية، يتحرك في المنزل، يرتب، ويكنس، ويعدُّ أطباق الطعام، ويهز رأسه باستمرار وببلاهة.. خادمة.

مضى السأم يشعرني بلزوجة الوقت، بحيث كنت أقضي جلّ وقتي أمام التلفاز أشاهد برامج تصيب الكبار بالضجر، وتجعل الصغار يعتقدون أن هذا الجهاز صنع لإنزال العقاب، فكان الوقت الجميل الذي أحظى به محدداً في عطلات نهاية الأسبوع، عندما نجتمع في بيت جدي، كلّ أبناء خالي وأبناء خالاتي، وفي الحوش الفسيح أفرغ شحنات خزّنْتُها لمدة خمسة أيام بحالة حماس قصوى تخرجني عن هدوئي المعتاد، فيأتي لعبي معهم أرعنَ، وفيه نوع من العدائية، لا يخلو من العنف الذي كنت أجد طرقاً مختلفة لإخراجه من أعماقي، أتحول إلى شخص مؤذٍ شديد الجموح. وكانت العراكات التي تؤدي إليها هذه الحالة تجعلني متهيجاً أقول كلمات بذيئة حفظتها عن والدي، وأقوم بأفعال سيئة تزيدني إصراراً على القسوة.

ثم ينتهي اللعب، وتنتهي الزيارة ويعود كل منا مع أهله إلى بيته، ليبدأ الإحساس القاسي بالندم تمدده المؤلم في صدري وأنا أنظر، من زجاج نافذة باب سيارة أمي الخلفي، لأضواء أعمدة الإنارة وهي تعبرني الواحدة تلو الأخرى، ونحن في طريقنا إلى البيت.

كنت أتمنى كل مرة في طريق العودة أن يعود الزمن إلى الوراء، أن يتغير اتجاه مرور أعمدة الإنارة، حتى أصل إلى تلك اللحظات

التي تشاجرت فيها مع أبناء خالي وأبناء خالاتي لأعتذر، ولأطلب منهم الصفح، لأقول لهم إنني كنت مخطئاً.

* * *

ذات ملل نشب أمامي خلاف حاد بين والديَّ، استحضر أبي فيه قاموسه الضخم من الشتائم والسباب وقذفه عليها بصوت مشحون بالإصرار والثبات.

سببُه أن أمي رفضت وجود كلب في بيتها، وكان هو يصرُّ على أن يسكنه فوق السطح، كانت هذه أول مرة أشهد فيها نزاعاً بشرياً يقوم على تحقيق الذات في تطبيق الرغبة على الطرف الآخر.

- هل قال لك أحد إنني سأتبناه؟ إنه للحراسة فقط.
- وماذا سيحرس؟
- الحمام.
- ومن سيسرق حمامك الرخيص؟
- رخيص!! أرخص حمامة عندي أغلى منك.
- لا تقلّ أدبك عليّ أمام ولدي.
- إذاً لا تناقشيني في أمر الكلب.
- ولماذا الكلب وأنت موجود؟
- ماذا تقصدين..؟
- ....
- أتقصدين أنني كلب؟
- ....

- أنت الكلبة يا بنت الشوارع.. لعن الله من خلفوك ومن زوجوني بك، لو كنت متزوجاً من كلبة لكان أفضل لي وأشرف لعائلتي.

- احترم نفسك، ولا تذكر أهلي بلسانك، ولا تنسَ أنهم هم من تنازلوا وزوجوني بك.

- وماذا سيضرهم وأنتِ منهم؟ اسمعي يا لولوة، إذا لم يعجبك هذا فاذهبي إلى أهلك، وقولي لهم إنه فضّل الكلب علي، وأغلقي الباب وراءك، أما الكلب فسيدخل وسينام على فراشك.

تدخلتُ في الوقت الخطأ بعفوية طفل وقلت لأبي:

- هل أذهب معها أبي؟

صرخ بعنف:

- انقلع معها.. الشجرة الخبيثة لا تخرج ثمراً طيباً.

رفعتْ أمي هنا صوتها بغضب:

- لا دخل للصغير في مشكلاتنا، لا تعقّده، دعنا بعيدَين عنك أنت وكلبك فقط.

وانسحبت متظاهرة بترتيب المطبخ، متعمّدة الابتعاد عني حتى لا أراها تبكي، مستسلمة بصمت لوجود كلب في بيتنا.

غرق البيت بدموعي أنا أيضاً، فقد هزّتني رغبة أبي في التخلص مني، ركضت إلى الباب لعلني أجد الساحر الذي خرجنا من قبعته، فأطلب منه أن يعيدني إليها، فتحتُهُ فتحركتْ مفاصله الحديد بصرير خفيف يتناسب مع جو الحزن في نفسي، كان الوقت عصراً،

والشمس كانت ستبدو لطيفة لولا كلمات أبي، شعرت بنسمة فاترة تعبر الجو، ألقيت نظرة إلى الشارع فلم أجد أحداً، تمنيت أن يأتي الحرامي ويأخذني ثم لا يعيدني، جلست حزيناً أمام الباب، وقد اختفت دهشة الأشياء في نظري، وبدت الدنيا مملّة كالحروف التي تطلب مني أمي نسخها. أحنيت رأسي ووضعته على يدي، كم كان أبي حجراً في هذا اليوم! قذفته الحوادث في صدري الهشّ، كرهتُه من أعماقي في تلك اللحظة، وتخيّلتُ أنه يتحول إلى حمامة تطير بعيداً ولا تعود. طرأتْ عليّ صورة أخي منصور، ورأيت كم كان أبناء خالي وخالاتي محظوظين في أسرهم، على الأقل لديهم إخوة يلعبون معهم، أما أنا فوحيد وغير مرغوب به في هذا البيت الذي يعلوه برج حمام سيسكنه كلب لا تريده أمي.

بينما كنتُ أتردد على هذه الأفكار الداكنة لمع شيء برأسي، إدراكٌ استباقيٌّ للحدث قبل وقوعه، يبدو أن حزني بسبب حرماني من الترويح الذي يوفّره الإخوة تحول إلى كشف غيبي بأني سأعثر على أشخاص جدد من عالم جديد خُلق للتو، وسأشاركهم في وجودهم وفي طرق حياتهم، لم يكن سوى شعور، أو شيء أقل من ذبذبات الشعور، بثه إحساسي بالوحدة.

وإذا بصبيّين في مثل سنّي يجريان خلف كلب ضال، اندسّ الكلب خلف سيارة أمي المرسيدس، كان كلباً هزيلاً ومرعوباً، وبدا أنه مصاب ويعاني من كدمات قذف الحجارة. الصبيان يرتدي كل منهما سروالاً وفانيلة أبيضين، من التي نلبسها عادة تحت الثوب، وعلى أحدهما بقع شربة حمراء تظهر منسكبة على صدره حتى

منتصف سرواله، وكان هناك طين ناشف على أطراف سروالهما، وقفتُ أتأملهما وهما يلتفان حول السيارة ويحاولان إخراج الكلب، أحدهما بالعصا والآخر بالحجارة. تقدمت وأشرت لهما بأنه قريب من الإطار الخلفي، ثم شاركتُهما بدافع من غريزة حب اللعب التي تدفع الأولاد للمصاحبة، وتجعلهم يرون أنهم يعرفون بعضهم بعضاً بقدر كافٍ لإضفاء الثقة، هكذا بلا طلب انتماء، ولا اتفاق انضمام مسبق ركضت معهما في الشوارع خلف الكلب المنكوب أشاركهما النيل منه.

تعرفت عليهما بسرعة، كان الأول ناصر مدلول، جسمه هزيل ووجهه الصغير أسمر بتأثير من لعبه الطويل تحت الشمس، يقع بيته في رأس الشارع، والثاني ابن جيرانه إبراهيم سعد، صبي سمين ووجهه العريض مكتنز بالدم، وقد انحسرت فانيلته عن كرش منتفخ.

هرب الكلب مثلما تفعل الكلاب الضالة طيلة الوقت، فجلسنا في الساحة نتبادل سرد القصص الخيالية حول كلاب قتلناها بعد عراك ضارٍ في أيام خلت، كان إبراهيم أكثرنا بعداً عن المنطقية في السرد، كنا نتجاوز بروح طفولية عن التوقف أمام قصة طيرانه في الهواء وتحوله إلى صقر قوي يمزق بمخلبه كلاباً كادت تنهش والده.

سحبَتِ اليدُ الخفيّةُ حبل الشمس حتى اختفت في الأفق، وكل واحد منا ينتظر أن يأتي دوره بعد انتهاء الآخر من سرد قصة يستعرض بها قدرته على الإيذاء.

* * *

عدت إلى البيت في المساء لأجد أمي قلقة بهواجس الأم التي تفترض بشكل وسواس قسري وقوع الشر للأبناء عند تأخرهم عن عينها. كانت جالسة في الحوش مقابل باب الشارع الذي تركَتْهُ مفتوحاً، تتقلب على لوح حامٍ، ضمتني إلى صدرها، وأجهشت بالبكاء. كان أبي قد خرج للبحث عني منذ غياب الشمس.

أخذتْني إلى الحمّام، واغتسلت بماء بارد ارتعش منه جلدي، بينما هي تردِّد عليّ خارج الحمام مخاوفها من ضياعي في الشوارع.

عاد أبي من الخارج حالما انتهيتُ من العَشاء، لم يشتمني، لم يقل شيئاً، فقط نظر إليّ بصمت نظرةً دلّتْ على ارتياحه لرؤيتي سالماً، وصعد إلى السطح.

ذهبتُ إلى فراشي وأنا في غاية الامتلاء بالسرور، فقد أصبح لدي صديقان يسرهما أن أكون معهما، وعرفتُ الآن، ولأول مرة في حياتي، شعور أن يكون لي أصدقاء أشاركهم اكتشافي للعالم.

أطفأتْ أمي الأنوار، وتمددتْ بجانبي على السرير، وراحتْ بصوتها الدافئ والمشتق من الأمان تقص عليّ قصة من قصصها التي تنتهي دائماً بانتصار الخير. في تلك الليلة قصّت عليّ قصة ولدٍ هرب من بيت أهله، أضاع طريق العودة، فاختطفه الأشرار الذين جاء دورهم في القصة بشكل مباغت وغير مقنع، فخبَّؤُوه في مغارة بعيدة لعدة ليالٍ، لم يطعموه فيها شيئاً، وكان الولد يبكي ويرجوهم أن يعيدوه، ويقول لن أهرب من البيت مرة أخرى، وفجأة يدخل أبوه ويهزم الأشرار ويخرجه من المغارة. سألتها:

- لماذا هرب الولد من بيته؟

أجابت:

- لعله كان منزعجاً من شيء.

- وهل يهرب الأولاد إذا انزعجوا من شيء؟

- لا، لا.

اعتدلتْ ووضعتْ يدها على خدّي وأكملت:

- إذا انزعجوا من شيء يذهبون لأمهاتهم ويقولون ما يزعجهم.

- وهل كان أبو الولد يربي كلباً فوق بيتهم؟

ضحكت من سؤالي، وقالت:

- لا أعرف.

نبح الكلب في السطح بعد لحظة صمت، فاستطردتْ:

- لا أعتقد أنّ أباه كان يربي كلباً.

غطّتني جيداً، وطبعتْ قبلة على رأسي، ثم خرجتْ وتركت الباب مواربا.

* * *

بسبب خوفها عليّ من الشارع، ومما قد أتعلمه من أشياء رديئة في الخارج، منعتْني أمي من الخروج مع ناصر وإبراهيم اللذين أصبحا في كل عصر يطرقان باب بيتنا لنستأنف البحث في الشوارع عن الكلاب الضالة؛ وكنتُ قد اكتسبتُ بعض المهارات في الأيام القليلة التي مارستُ معهما فيها ملاحقة الكلاب، كضربها بالعصا، وإصابتها بالحجارة، ومعرفة أماكن اختبائها.

كانت تأتي جماعات، ثلاثة كلاب على أقل تقدير، منكسة رؤوسها أثناء المشي، وتعكس وجوهها الحزينة تعباً نفسياً هائلاً، تبحث عن طعام ومأوى يقيها لهب الصيف، أو زمهرير الشتاء، وعادة ما تأوي إلى الأماكن الرطبة، وإذا حصل لها أن تندس تحت سقف واطئ فلا تفوّت الفرصة أبداً، ولا تنبح ما دامت الشمس تعمل في السماء، حتى يأتي الغروب، ويتسرب السكون في كل شيء، فتستعر وتطارد كل ما يمر أمامها، ومع هذا تبقى جبانة لا تتجرأ على إيذاء أحد.

كان لقرار المنع وقعه السيّئ في نفسي، فقد وجدت لذة كاملة في الشارع، لا تفسدها عين الرقيب المنزلي الذي تقوم به أمي، وهي هِبَةٌ من هبات الحرية، الحرية التي أجهزت أمي عليها في قرارها، وسلبتني إرادتي.

لكنها سمحت لي باللعب معهما في البيت فقط، أمام عينها التي تكتشف الأخطاء فتهرع لتصحيحها.

كبر ولعي بالفضاء الفسيح الذي يقع خلف الباب المغلق، وتفاقم إعجابي بحياة الكلاب الضالة، فهي تعيش في الخارج طيلة الوقت، وتستلقي في أي بقاع الأرض شاءت، لو كانت فقط تستطيع الدفاع عن نفسها، لو أنها تمتلك القدرة على الإيذاء، لكانت مخلوقات محترمة، ولكانت رمزاً خالداً للحرية.

* * *

غافلتها ذات عصر، عندما أخذتْها القيلولة لأبعد من وقتها المعتاد، وتسللتُ إلى صديقيَّ وشمس الصيف تحرق الأرض، كنت

حافياً وأرتدي سروالاً وفانيلة أبيضين، تعمدتُ أن أسكب بعض قطرات من عصير البرتقال على الفانيلة لأبدو في صورة الولد الضال التي توحي بما يجول في داخلي. وفي حالة هياج قصوى اجتمعتْ فيها شحناتُ ثلاثة أيام من كبت الرغبة، ركضتُ إلى مرابض الكلاب، عند سور المدرسة خلف ساحتنا، وتحت إحدى السيارات المتهالكة المهجورة في أحد الأزقة الرملية، وعند السدر المتروك في الساحة التي تقع بعد شارعين من شارعنا.

تتبعتُ حدسي الذي بدأ يدرك أين يمكن أن تكون، تقصّيت أثرها يتبعني صديقاي بلا أي سؤال أو أدنى استفسار عن وجهتي، طوال الطريق كنت صامتاً ولا أتوقف، حتى رأيت أحدها. كان جرواً يافعاً، ورابضاً تحت ظل السيارة المتهالكة، توقفت قليلاً ألتقط أنفاسي وأُعمل مخيلتي في تصور نهاية تناسب شغفي، بدا لي كأنني مررت بهذه التجربة من قبل، هجمتُ عليه بكل قوة جسد صبي في العاشرة، أمسكتُه من ذيله، وسحبتُه حتى أخرجتُه من هيكل السيارة، نبح الكلب، استعذبتُ الخوف بصوته، إذ أعجبتني نبرة الانكسار فيه، تلذَّذت بذلك الصفير الذي يخرج ذليلاً من رئتيه، لا أعلم من أين جاءت هذه المشاعر، من الذي أوحى لي بها!! كل ما أعرفه هو أني لمست في الأمر شيئاً أعلى مقاماً من التسلية، ضربتُه بالعصا ضرباً أذهل صاحبيّ، كنت أسمع صوت تحطُّم عظام مكتوم، وكان الجرو يحرث التراب بأرجله الأربع في محاولة للهرب، بيد أن أصابعي قد انغرست في ذيله كما الكماشة، في تصميم فولاذي على الإيذاء، مدّ رأسه لأبعد مدى يستطيعه لينأى به عن صلابة عصاي،

وجدتُ استمتاعاً كبيراً في سماع قرع جمجمته، ولا حاجة لي في أن أقول إنه لم يكن حينها أي ارتباط مباشر بين الصوت وإثارة الرغبة الجنسية، كان الصوت يملؤني شهوة، ويثيرني لرؤية الجرو في وضع مأسوي، لأشعر بأكثر معاني المأساة حسّية، وهو ما كنت أبحث عنه.

تملَّكني شعور بالتمكّن وإحساس ببلوغ القوة، ورأيتني في كمال رجل بارع بلا نقص.

غمغم ناصر:

- كفى، سوف يموت الكلب.

نظرت إليه فوجدته مرعوباً من الحالة التي اعترتني، ويبدو أن ملامحي أثارت فيه الخوف، فمن ارتفاع حاجبه واتساع عينه وتكوّر شفتيه بدا أنه يشعر بالرعب والشفقة معاً. صرخت:

- لن أتركه حتى يموت.

- حرام سلمان. (رفع ناصر صوته).

خُيّل إليّ أن صوت رجل بالغ يخرج من فمي، عندما صرخت عليه:

- قلت لك سوف يموت.

كنت واثقاً بضرباتي التي أنزلتها على رأسه بإتقان. أما إبراهيم فقد جلس فاغراً فاه، ينظر بصمت للجرو وهو يتلوى ويتلوى إلى أن قلّ نشاطه في الهرب، ثم تخاذلتْ قواه تحت ضربات العصا فسقط مستسلماً لمصيره. لازمتُ عليه الضربات بلا هوادة، لم أكن أرى

شيئاً أمامي سوى رأسه الدامي وأسنانه المخضبة بالأحمر. ارتجف جسده كالمصعوق في النهاية، ثم ارتجّ، ثم فجأة همد بلا حراك على الأرض.. مات.

تغيّرت نظرة ناصر وإبراهيم لي بعد حادثة الكلب، فقد تلاشتْ مخالفاتهما لرأيي، حتى طريقتهما في الكلام معي أصبحت رجاءً بدلاً من الأمر، ورأيتُ منهما انقياداً خالياً من التردُّد.

لما عدت إلى البيت وجدتُ أمي منتظرة في الحوش جالسة كعادتها في انتظاري، لم أخبرها بشيء ممّا حصل. أنّبتني وقرصتْ أذني ثم دفعتني إلى حمّام بارد.

في اليوم التالي كان المنع أكثر جدية، فقد أُغلق الباب بالمفتاح، والمزلاج بالقفل، ومُنع صديقاي من زيارتي. عدت إلى الانطواء في غرفتي، والانعزال في الصالة أمام التلفزيون ببرامجه الكئيبة، محبوساً في خشية أمي.

* * *

مرّ أسبوع وغُرٌ، وكنت لا أخرج إلا إلى بيت جدي، أو إلى السوق بصحبة أمي.

كوّن الشارع وناصر وإبراهيم والكلاب في داخلي نوعاً من الأحلام الجميلة التي يحلم الأطفال برؤيتها واقعاً، على أنهم أصبحوا كل ما أتمنى الحصول عليه من الدنيا.

كنت أشعر بحزن ثقيل إذا استعدت صورة جرْينا خلف كلب، ازداد حبي لهما بمقدار ما ازددت بعداً عنهما.

سمعت طرقاتهما على الباب ذات عصر، والمنع في أشده، علمت أن كلاباً جديدة قد وفدت إلى السيارة المتهالكة، فوجدتُ أمي تنظر إليّ من فوق غلاف مجلة وتقول:

- لا تُجِب.

تركتهما بلا جواب حتى توقفت الطَّرقات، ونما إليّ حسيس خطواتهما الحافية تبتعد، عندها شعرت بالكلب الذي قتلته يتلوى في صدري ويطالبني بالمزيد من الضرب. انطفأت ألوان التلفاز، وأظلمت اللعب المكوّمة في الخزانة، ولم يعد ثمة سرور يرجى من الحياة.

غير أن بديهتي لا تنفك تبحث عن مصدر جديد، كما يفعل الأطفال دائماً بما حولهم إذا لم يكن الواقع كما يرغبون، تخيّلت عالمي كما أرغب: صالتنا ساحة ترابية، والكراسي كلاب، وأخذتُ أضربها بعصا المكنسة أثناء غياب أمي وانشغال الخادمة، حتى أحدثت أضراراً بطلائها، إلا أنني لم أجد مع هذا السعادة التي تتأتى من جاذبية الإحساس بالألم الذي تصنعه أرواح الأحياء، لا يمكن أن تصدر من الجمادات تلك الارتعاشات القادرة على بث كهرباء الشعور لتضيء مصابيح الفرح.

طلبت من أمي أن تشتري لي مجسَّم كلب على أن يكون ناحل الجسم، فرفضتْ طلبي خشية أن أشابه أبي في سلوكه.

اشتد بي الملل، فقلّتْ شهيتي للطعام، وبدأ الاكتئاب يمتص بدني، قلقت أمي من نقصان وزني السريع، بعد انتباهها إلى أن «بناطيلي» لا تثبت على خصري، وذهاب حمرة وجهي، فأخذتني إلى

الطبيب، وبعدما نبش حلقي، وفتش بأصابعه عن السبب في بطني، تبين له أني لا أشكو من أي مرض، فاستسلمتْ أمي بسهولة - وهي صاحبة العقل العلمي- لموروثها الثقافي بأن ما أصابني هو «عين»، ولا بد أن تكون هذه العين قد لدغتني في بيت جدي لأنني لا أخرج إلا إلى هناك.

هكذا تبدلت مواعيد زياراتنا إلى بيت جدي من العطل الأسبوعية حيث يجتمع الأطفال، إلى الأيام العادية حيث لا أحد غيري في الحوش الفسيح، فضاق الخناق أكثر، واتسعت دائرة الملل، ثم توترت أعصابي، وجعلت أتلف أثاثنا وأشتم أمي مثلما يفعل أبي.

* * *

جاءتني فكرة ذات يوم بلغ فيه الملل حد التصاق الوقت بجلدي، أحسست معها بمدى عمائي عندما سألت نفسي: (ما أخبار كلب أبي الذي في السطح؟)، فارتسمت على وجهي، لأول مرة منذ عدة أسابيع، ابتسامة شيطانية، نبعت من شعوري الواثق بالانتصار، حمّلتها كل معاني الشر، انتهزت فرصة قيلولة والدي، وصعدت الدرج بخطوات خافتة وفي يدي سكين مطبخ حادّة، صممتُ على أن أغرسها في بطن الكلب، فتحت باب السطح الخشبي، لتندلع في وجهي شمس الظهيرة الحارقة وهي في كامل اشتعالها، وجدته رابضاً تحت برج الحمام، كان من نوع «الروت ويلر» المحب للعنف، تنبّه لقدومي فوقف بشكله المخيف، والذي يضعه في مصاف الحيوانات المتوحشة، متحفزاً ومنتصب الأذنين. لم أره من

قبل، حيث نهتْني أمي منذ دخل بيتنا عن الصعود إلى السطح. لم يعتد كلّ منّا على الآخر، وقد امتلأت المسافة التي بيني وبينه بالعداء الفطري الذي ينشأ تجاه الأشياء المجهولة. وقفتُ أتفحص بشاعته، وأقيس بنيته ببنية الكلاب الضالة الهزيلة، كان مختلفاً عنها، ويبدو واثقاً بقدرته على التمزيق، فِراؤه بنّي مبقع بأسود عند الظهر والرقبة، ألوان تجلب الشؤم. كما تخبر عيناه الباكيتان بشرٍّ مستطير يحتدم في داخله، ترددت، لكنني شجّعت نفسي بأنه مجرد كلب لعين من طينة بقية الكلاب، وسيخرّ بمجرد أن أضع السكين في صلب كبريائه، تقدمت خطوة، فالتفتَ بلا مبالاة إلى برج الحمام كأنه يتجاهلني، أو كأنه يعتبرني لا شيء، حرك هذا شعور النقص في ذاتي، إذ كيف لكلب أن يلغي هيبتي التي تفرّ منها الكلاب هلعاً، عندها قررت أن هذه هي الفرصة الملائمة لأثبّت سيادتي على روحه، التصقتُ بسور السطح، وسرتُ على أطراف قدميّ ببطء وحذر، بينما هو لا يزال ملتفتاً كأنه لا يراني، تقدمتُ حتى اقتربتُ من ذيله، خفتُ قليلاً، وفكرت بأنني أخطأت التقدير، بيد أني أصبحت بعيداً عن خط الرجعة، ولا بد الآن من المواجهة، قفزتُ عليه بغتةً لأكسب عنصر المفاجأة، قاذفاً بثقلي كله باتجاهه، ومادّاً سكيني التي راحت تشق الهواء في طريقها لتثقب بطنه، فتحاشاني بحركة رشيقة غيّر بها موضعه إلى آخر، واتخذ وضعية الهجوم حتى وقعتُ على الأرض، ثم بوثبة واحدة جثم بقدميه على صدري، وقرّب وجهه من وجهي، مكشّراً عن أنياب لا تقلّ حدة عن السكين التي لا تزال في يدي، وجعل ينبح بانفعال.

أرعبني صوت نباحه المهدِّد، أرعبتني أكثر صورة عينيه المسددتين نحوي بلونهما الأسود المتداخل مع البني، وأثارت أنفاسه الكريهة بشكل حاد لا يوصف مخاوفي لأول مرة من الموت، صرخت عالياً أستغيث بأمي، صرختُ وصرختُ وصرختُ. لكنّ أحداً لم يظهر لينقذني من براثنه. نبح ونبح ونبح حتى شعرتُ في تلك اللحظة اليائسة بأن قوة ما تملكتني؛ قوة أكبر من معرفتنا بالغريزة وقدراتها الخارقة التي لا تخرج إلا عندما يهددنا الخطر ويحيط بمصائرنا الهلاك، ويمكن القول إنها نظام أمني، وُجِد ليحفظ بقاء الأجناس. غُصْتُ إلى داخلي، تعمقت في نفسي، حتى خَفَتَ نباحُهُ، وصرتُ أسمعه يأتي من بعيد، شيء ما فيَّ تشبّث بالحياة، وأراد القتال للنهاية بلا استسلام، غاصت السكين في جنبه الأيسر، تدفعها يدي لا إرادياً، اخترق النصل أحشاءه بسهولة، سحبتها منه ثم أعدتُ الكَرّة مرة أخرى، فغاصت السكين بكاملها، ضعف ضغط قدميه على صدري، ثم تقوّض بناؤه الضخم متقهقراً إلى الوراء، إلى أن وصل عند زاوية البرج، وجعل ينبح بصوت محطم، ثم تهاوى مصدراً من صدره صفيراً كصفير الجرو الضال عندما ضربته، مخلفاً بقعاً حمراء على الأرض.

كانت سعادتي لا توصف وأنا أقف عند رأسه وموجات من التشنجات تنتاب فروة جسده، وضعت عيني بزهو منتصر في عينيه المخيفتين حالما انطفأت منهما شعلة القوة، وغلب عليهما ضلال الرجاء. شعرت بانجذاب غامض نحو الدم، كان هذا الانجذاب مكوناً من شعورين؛ الأول شعوري بالتمكّن بسبب الفعل الفريد

لتصرفي، والثاني شعوري بالفوز لأنني تجاوزت حدود سطوة الخوف من الكلب. جلست تحت ظلال برج الحمام وراقبته حتى أغلق عينيه وفارق الحياة.

* * *

تخلصتُ من كلّ أدلة الجريمة، حرصت أن تكون ملابسي المدماة في قعر سلة القمامة، والسكين مغسولة في درج المطبخ، وجسدي مشطّف ومعطر وممدد على السرير، داهمتني لحظة من اللحظات الإشراقية التي يشعر بها قائد منتشٍ باكتمال الانتصار، تفوّقتُ على كلب شرس بعدما كاد يلتهمني بسكاكينه النابتة في فكّيه.. يا لي من بطل!

لا يهم مَن الذي ستشير له أصابع الاتهام، المهم هو أنني أبعد من يمكن أن ترفع في وجهه تلك الأصابع، بالتأكيد سيكون أبي أمام مأزق، لأن العقل يجب أن يعمل ليجد سبباً لفاعل الجريمة، وبما أن أمي ترقد بجانبه، والخادمة لا يمكن أن تذبح دجاجة، وأنا -كما يعتبرني- صغير يعجز عن مثل هذا الفعل، ستكون جريمة غامضة، إلى حدٍّ قد يتهم أبي فيها نفسه.

في العصر عند بداية تمدّد الظل، صعد أبي ليأخذ نصيبه من متع الحياة، في مشاهدة مخلوقاته العابثة تحلّق فوق وحشه النابح، لكن يبدو أنه صُعِق بشيء ما، لم يترك له فرصة الاستمتاع، وقطع عليه لذة تذوق حركات الحمام الراقصة، فلم يستأنف نشوته، ونزل السلم يحمله بخرقة.

رأيت وجهه من فتحة باب غرفتي، وهو يخطو نازلاً من درجات

السلم، كوجه طفل كسرتْ لعبته الجديدة أمامه، وراح يقاوم البكاء بصعوبة.

قال بصوت متأوِّه:

- من ابن الكلب الذي فعل به هذا؟ من الذي لن يعيش حتى يوم غد؟ من الذي سأفعل به حتى الموت؟

جاءت أمي لترى ما يحدث، فصُدمت، وكانت علامات الخوف تقبض على وجهها. كيف حدث هذا؟ ومن الذي فعله؟ فمن الممكن أن يفعله بولدها الصغير وهم نائمون في فراشهم.

حمل أبي كلبه بصمت وخرج من البيت.

سمعت خطواته في آخر الليل تنسحب على الدرج بتثاقل، وسمعته يقول لأمي:

- مَن تعتقدين أنه فعل هذا؟

وبعد صمت أجابته:

- قد يكون سقط على شيء حاد في السطح، هل تفقّدت المكان؟ لعل هناك مسماراً خرج من البرج.

عاد الصمت ليستولي على البيت من جديد.

لم أنم جيداً ليلتها، اجتاحتني كوابيس كثيرة، كان أكثرها رعباً هو ذاك الذي رأيتني فيه أطعن أبي بالسكين نفسها التي طعنت بها الكلب.

* * *

بعد أسبوعين من واقعة الكلب، سافرت أنا وأمي مع أخوالي

إلى مصر، ومكث أبي وحده في بيتنا، لأنه لا يحب السفر، وكان قد تلقى قبل ذهابنا هدية من أحد رفاقه في هواية اللعب بالحمام، كانت الهدية عبارة عن كلب «روت ويلر» آخر، تسبب نباحه الفجّ بمشاجرة بينه وبين جارنا أبي معاذ، وذلك بعدما أزعجه استمرار النباح في الليل، فطرق بابنا في اليوم التالي ليشتكي، فلاقاه أبي بعصبية أفرزت كلمات شاتمة، ثم أغلق الباب في وجهه، فلم يجد أبو معاذ بُدّاً من أن يشتكي عند المخفر، فلم يجدوا له قانوناً يمنع وجود كلب حراسة في بيت خاص، فقرَّر أن يعيد الكرّة وينصح أبي بالحسنى، إنما هذه المرة لم يخرج له أبي عندما طرق الباب.. خرج له الكلب، فلم يعد أبو معاذ للشكوى بعدها.

* * *

تنهمر الذكريات مثل المطر وتنقطع، ومن خلال عملية ربط متوالية منطقية نستطيع أن نملأ الأماكن التي نجدها فارغة، فالتاريخ نفسه -إذا اعتبرناه ذكريات البشرية جمعاء- يقوم على استعمال المنطق إذا وجد نفسه أمام عيب في الذاكرة الكلية للبشر بعدم كفاية التوثيق، لا أحد يمكنه تذكر مرحلة كاملة من حياته بكل تفاصيلها، وبعموم لحظاتها، وبجميع أزمنتها، ما نذكره هو المنعطفات فقط، الوقائع التي أحدثت فينا تغييراً، واستحقت بهذا تقدير الذاكرة.

فترة الطفولة تكون موجودة بصورة حلم صحَوْنا منه للتو، لتمضي بها السنون وتشُفُّها حتى تتحول، في سن متقدمة، إلى الوهم الذي لا نجد بُدّاً من مراوغته بالإضافة والتنقيص.

أما ما حدث عقب عودتي مع أمي من السفر، فقد غار في

مهاوي الذاكرة السحيقة، لا يمكنني سبر غوره، لا الآن ولا في أي وقت لاحق، حتى لو استطعت فستكون أشياء مبعثرة لن أستطيع التمييز بينها وبين الوهم، لكنني أرى، نظراً إلى مساري التاريخي، أنني وقفتُ عند بابنا، أنظر إلى مكونات الكون كما أفعل دائماً كلما شعرت بأنني وحيد، ورأيت ناصر وإبراهيم يخرجان من أحد الأزقة، ومعهم صبي جديد آخر اسمه حيدر سكن في شارعنا أثناء غيابي، يركضون خلف مجموعة من الكلاب التي أتت من الخلاء بحثاً عن القوت في المدينة الوليدة، فركضت معهم، لأنّ الذكرى التي تأتي بعد سفري مع أخوالي كانت وأنا أجري معهم خلف كلب هزيل في شوارع «الجنان».

2

كنت قد كونت مع ناصر وإبراهيم مجموعة من الأصدقاء لهم ميولنا نفسها للمتاعب. اتخذنا من الساحة التي ينتهي عندها شارعنا مكاناً نجتمع فيه عقب كل أذان عصر، وننفضّ عنه بعد كل أذان مغرب، لم تعد الكلاب الضالة تمرّ على منطقتنا بمثل تلك الأعداد التي كنا نلاحقها طيلة شهر ولا تنتهي، لا ريب أن أحد الأسباب، إن لم يكن السبب الوحيد، هو جيش الصبية الذي ترصّد لها في كل مكان، فرأتِ الكلاب، غريزياً، أن هذه المنطقة ذات القمامات الدسمة والأرصفة الجديدة ليست إلا بوابة من بوابات الجحيم سمّيت تهكّماً «الجنان».

بيد أن الأمر كان لا يخلو من كلب أخطأ تقدير الموقف وجرّه

الهلاك إلى ساحتنا، مثلما حدث في تلك المرة، وكنا أكثر من خمسة، حينما صاح إبراهيم سعد بثخن طبقة صوته السمينة: (كلب.. كلب.. كلب)، ومن البعيد رأينا كلباً له جسد مختلف عن بقية الكلاب التي نعرفها، فرأسه الصغير يبدو نظيفاً، وشعره المنسدل كأنه مُشّط بعناية؛ وقف ينظر إلينا من آخر الشارع قريباً من زقاق السيارة المتهالكة، رحنا نجري باتجاهه وفي أيدينا أدوات اصطياد الكلاب التي تطورت عن العصا والحجارة، وأصبحت عصياً أضيف إلى رؤوسها سكاكين أو قضبان حادة شُدَّت بشرائط لاصقة متينة، فأصبحت على صورة حراب، توزعنا أثناء الجري كتكتيك هجومي يسد عليه سبل الفرار ولا يترك له منفذاً إلا زقاق السيارة المتهالكة، حيث نريده أن يتّجه بروحه الزاهقة، قطعنا عليه طريق العودة إلى خلائه، وحُلْنا بينه وبين الذهاب إلى بقية الشوارع، فتراجع ينبح باستجداء يائس، حتى اندس أخيراً تحت تلك السيارة القديمة، والتي يتبوّل عليها عمال النظافة في كل مرة يجدون عندها جثة كلب ميت، إذ تبدو أنها هنا قبل بناء المنطقة.

كانت عصاي ذات الرأس السكينية هي السباقة دائماً إلى لعق أجساد الكلاب، غير أن الحظ منح عصا ناصر مدلول ذات الرأس القضيبية السبق هذه المرة، فما إن أصابه من خاصرته وانغرس القضيب في الأحشاء حتى مات الكلب بسهولة؛ لم يُبدِ أي مقاومة للألم، لم يتلوَّ، لم يئنّ، لم يعوِ، كان مستسلماً استسلاماً مترفاً للموت. تركناه بعدما أضفنا إلى رصيد ناصر كلباً آخر من الكلاب التي نقتلها، ليكون الفخار بيننا مبنياً على أرقام وحقائق.

بعد أذان عصر اليوم التالي، حدث أمر لم نعهده؛ فبعد أن اجتمعنا في الساحة كما كل يوم نلعب الكرة بحماس فاتر، نركلها ونركض وراءها بلا هدف، فقط لنزجي خمول الوقت، وننتظر مرور كلب يحفز غددنا الدرقية على ضخ هرمون الشيطنة، أو ننتظر حتى يجود أحدنا باقتراح يثير فينا الشقاوة ورغبة التخريب، جاءنا حيدر، أحد الرفاق، قادماً من بيتهم في آخر شارعنا، بصحبة ثلاثة فتية أكبر منا ببضع سنوات، ولم نرهم من قبل. كان وجهه الأبيض والذي خط اخضرار الزغب شاربه مبكراً منكمشاً باستياء، ولم تكن عيناه الصغيرتان تبشران بخير. همس إبراهيم كأنه رأى شيطاناً:

- إنه.. إنه.. مرزوق العبد.

سألته:

- من مرزوق العبد هذا؟

- هذا ولد مؤذٍ، ولا يُهزم، حتى إنه يضرب بالسكاكين. ألم تسمع به؟

- لم أسمع به.

- يا ويلنا.. لا بد أنه جاء ليمزقنا.

كان الفتى الأول الذي يتقدمهم هو مرزوق كما أشار إبراهيم، صبي ملتهب ومشمر عن ذراعيه، له جسد ثور أفريقي ضخم وناضج بملامح غاضبة كأنه خرج للتو منتصراً من عراك ضارٍ، والثاني فهد العرج، يمسك بيده سيجارة، منحته رجله القصيرة عن الأخرى لقباً أعسرَ مِنْ جرِّها على الطريق، أما الثالث العريض والأحمر فهو ممدوح المغربية نسبةً إلى أمه.

كان الثاني والثالث يقعان بشكل واضح تحت سيطرة الأول الذي تلبَّد الشر في وجهه وادلهمّ.

قال حيدر، كأنه يطرح حملاً ثقيلاً على الأرض: (هذا هو)، مشيراً بأصبعه إلى ناصر مدلول، الذي توقف عن ركل الكرة الآن، وأخذ يتأمل معنا هيئتهم باستغراب مشوب بالتوجس، وقف الثلاثة يتلفتون يميناً وشمالاً، وكانت الشمس قد مدت ظلالهم على الأرض بعيداً، وراحت أنفاس مرزوق تصدر صوتاً كصوت الزئير، ارتفعت صدورهم، اتقدت أعينهم، وأصابعهم تباعدت ثم انقبضت وتصلبت، ثم فجأة انقضوا ثلاثتهم بحركة واحدة على ناصر.

رفعوه عالياً ثم طرحوه على الأرض، وانهمكوا في إيساعه ضرباً.

كنا ننظر إلى ما يجري بصمت، عاجزين عن القيام بأي فعل لإنقاذ ناصر الذي جثم مرزوق العبد على صدره واجتهد بكل قواه على تركيز اللكمات إلى وجهه، بينما اكتفى العرج والمغربية بركله على مؤخرته.

استغاثنا ناصر بصوت باكٍ، كانت عيناه المتوسلتان تحاولان التقاط شهامة عين أحدنا، وبدلاً من أن ننقذه اكتفينا بإظهار الشفقة وبمشاهدة يدي مرزوق تترددان على وجهه بغضب.

كانت أعيننا مفتوحة على اتساعها ومرتعبة ومشفقة، حتى ليمكن الاعتقاد مع غياب ردة الفعل بأننا لا نعرف هذا المنكوب صاحب الكلمات المتوجعة المستغيثة، والذي انقطع صوته من البكاء والألم والتأوّه، وأخذ ينشج بنبرة غامضة أرخت حباله الصوتية.

لم يتركه مرزوق حتى رأى الدم يخرج من فمه ويصبغ أسنانه باللون الأحمر القاني. كان لوناً كريهاً أصابنا بالذعر، ليس مثل لون دم الكلاب، ذلك الدم مزحة، دم غير جاد في كونه دماً، أما هذا فهو دم حقيقي؛ دم له إحساس واقعي بالألم، وقد يخرج منا في غضون لحظات.

وقف مرزوق فارداً هامته الصلبة فوق جسد ناصر المتوجع، مظهراً وجهه عداءً شرساً قد يوجهه إلى أحدنا في أي لحظة، وقبل أن يترك ناصر رفسه على ظهره رفسة قطعت صوته بعدها.

وقف فهد وممدوح وراءه، كأنهما ينتظران إشارة البدء لينقضّا علينا. أما نحن فلم تزل عضلاتنا خاسئة، لم تشتد، لم تعترض ولو بحركة تشنج واحدة مخافة أن يجثم مرزوق بجسمه الأسود القوي على صدورنا، ويستخرج بيده الشديدة الدم من أفواهنا. في حين كانت عينا مرزوق تحيطنا بنظرة خارقة متفحصة.

انفرجت شفتاه وصرخ يسأل حيدر:

- من ساعده على قتل كلبي؟

كاد الأخير يختفي من ضآلته، كان شعوره بخذلان أصحابه قد أثلج وجهه، فبدا لونه شاحباً متيبساً، وعيناه تنظران إلى قدميه مباشرة:

- كلهم.

أجابه بحنك مرتجف.

- هل تقول كلهم؟ كل هؤلاء الكلاب قتلوه معاً.

استوثق من أننا كنا أطرافاً ساعدت على قتل كلبه عصر أمس، فمرّ بجبروت على البقية، وصفعهم واحداً تلو الآخر، صفعات أصدرت صوتاً كصوت ضربات السوط، تراجعوا من قوة ارتطامها بالوجه، وعندما وصل إلى إبراهيم سعد وجده يبكي وأثر بقعة بلل تتسع على التراب تحته بسائل تسرّب منه. صاح مرزوق:

- لقد بال.

وأطلق ضحكة طويلة تجاوب معها رفيقاه بشكل مبالغ فيه كثيراً.

بصق على إبراهيم ثم تجاوزه ليأتي دوري بعده، فتراءى لي وجهه المدلهم بأنفه الأفطس الكبير، وعيناه المحمرتان وشفتاه الغليظتان، كوجه الحرامي الذي خوفتني منه أمي، غاب الوجود بإشاراته المادية عن عيني، أصبح العالم مجرد رموز ودلالات، انسحب وعيي إلى الداخل بعدما تملكتني القوى نفسها التي حركتني لطعن كلب أبي من قبل، وجدت ساقيّ تنطلقان وحدهما وتنهبان من غير إرادتي مسافة الطريق إلى بيتنا بسرعة البرق، حتى إن مرزوق لم يجرِ ورائي طويلاً، وتوقف ليأسه من الإمساك بي، وإنما تناهى لي صوته مهدداً:

- بشرف أمي لن أتركك يا ابن القحبة.

* * *

احتميت بالبيت لمدة أربعة أيام طويلة معذبة، كان مرزوق ورفيقاه خلالها لا ينفكون يعيثون في ساحتنا، ولا يذهبون منها حتى يتسببوا ببكاء أحد أبناء شارعنا، لم يكن يهمني ماذا سيقولون عني؛

جبان أو متخاذل أو حتى فتاة، الحرص على السمعة كان هاجساً لا يستدعي التفكير، لم تكن تمتص ماء الوجه مثلما تفعل عندما كبرنا. كأن معاني الكلمات تعتمد بالدرجة الأولى لتفسيرها على مدى ضيق واتساع الفهم الذي يتطور بدوره في كل مرحلة من مراحل العمر حتى يقف عند نقطة معينة تحددها الأعراف والموروث الديني.

لم أتجاوز امتداد حدود بيتنا على الشارع، جالساً عند الرصيف المقابل للباب، داعياً البقية للجلوس معي. أصبحت ساحتنا من البعيد خالية بعد الغزو الذي شنه مرزوق وظلّاه اللصيقان عليها، ومع اقتراب موعد الدراسة تقلصت ساعات الخروج، واستولى الفراغ على حيزها بالكامل.

انتهت العطلة الصيفية عصر يوم الأربعاء، نسنست فيه رياح لطيفة على الشوارع، أخذت معها بقايا صهد الصيف العالقة في الجو، وضخّت في الهواء أنفاساً جديدة تمنح رئتنا جرعة وافية من الأكسجين الذي نستهلكه سريعاً في لهونا، وأغرتْني بتجاوز الشارع إلى الساحة، عندما تأكّدت من خلوها من المخاطر. ركلت الكرة معهم وأنا ألتفت يميناً وشمالاً ترقباً لغارة مفاجئة قد يشنها مرزوق وتابعاه، حتى رصدته يمشي من بعيد، فركضت وجلست أمام البيت، فأتى يركض شراً لما رآني جالساً على الرصيف، تركته يقترب مني بمسافة كافية تضعه أمام الكمين الذي نصبتُه له. لما اقترب وأصبح تحت منطقة النيران، صرخت مستنجداً بأبي، الذي طلَّ بشاربه الثخين من فوق السطح، وسألني:

- ماذا بك؟

فأشرت إلى مرزوق الذي توقف واصطنع دور البريء، وقلت:

- يريد أن يضربني.

بالغ أبي في ردّة فعله، وصاح يتوعد مرزوق:

- لا تهرب يا كلب، سأنزل وأقتلع خصيتك السوداء، وأضعها في مؤخرتك.

ولّى مرزوق هارباً بعدما سمع هذا التهديد الفاحش من رجل كبير، وتوعّدني بكلمات لم أسمع منها غير نهاياتها الصارخة، كادت تصدمه حافلة نقل مفروشات أثناء جريه وهو ملتفت إليّ، تحاشاها في آخر لحظة وسقط على الشارع، فنهض يمسك ساعده بعدما كشط الإسفلت جلده، ثم أكمل هروبه.

وقفت الحافلة أمام بيتنا، وكانت محملة بأثاث بيت كامل، أثاث جديد بألوان براقة. وقفت أمامها سيارة كابرس بيضاء، ترجَّل منها رجل قوي البنية، يرتدي ثوباً أبيض ناصعاً، ويضع على رأسه شماغاً أحمر لفه فوق العقال، له لحية سوداء مشذّبة تبرز تقاسيم وجهه الهادئة وتشي بسلوك قويم، حيّاني برفع حاجبيه ثم انصرف ليفتح الباب الخلفي، ونزل منه صبي رشيق في عمري نفسه، يرتدي بنطالاً «شورت» وقميصاً قصير الأكمام وحذاءً رياضياً ماركة أديداس، وتلتف حول رسغه ساعة إلكترونية تعمل على الطاقة الشمسية، كان صبياً مثالياً من طينة أولئك الصبية الذين تقدمهم شاشات التلفاز كنماذج للطلبة المتفوقين، شعره المدهون والمسرّح على جنب ينمّ عن تربيته المنزلية، وعن أنه لم يجسّ نبض الشوارع برجله بعد، كان هذا الصبي «حميد شاكر».

نزلت بعده فتاة جميلة، ألقت نظرة خاطفة على الأرجاء حتى لمست بمسار عينيها مسار عيني، كهربني جمالها وهي تمسك بفستانها الأبيض بغية تحريره من تمرد الريح، وكان الإحساس بالجمال في ذلك السنّ خالصاً ولا يخضع للمقاييس الصارمة التي وضعها الشعراء، وخالياً من جهل الشهوة، ثم إنه ينبع من وهج براءة الروح الجديدة على الدنيا.

أنزلوا الأثاث في بيت أبي معاذ كمستأجرين جدد، بعدما عرضه للإيجار، وسكن في بيت أبيه، لأنه حسب تعليل الجيران لم يستطع مجاورة أبي وكلابه.

غمغم أبي بكلمات بذيئة من فوق السطح وهو ينظر إلى جلبة العمال وهم يقومون بتنزيل الأثاث وتركيبه.

حين تواجهنا على العشاء وبّخني بقسوة على خوفي من مرزوق، وقال بانفعال:

- كيف تجبن عن ملاقاته؟ هاه.. أخبرني كيف سيكون وجهك عندما تهرب من الرجال إذا كبرت؟

وحثّني على أذيته في المرة القادمة، وإلا فلستُ من صلبه:

- سأنتظر غداً خبر نيلك منه.

تدخلت أمي تحرضني على الابتعاد عن المشكلات، قائلة بأنه لا فائدة من الشجار وإن المخفر وُجِد ليحلّ مثل هذه الأمور.

فقال أبي متهكماً:

- هه، نِعْمَ تربية الإناث يا ولدي.

ثم نهض ليصعد إلى غرفته.

حكيت لأمي وهي تبرِّد لي كوب الحليب عن المستأجرين الجدد لبيت الجيران. وصفت لها بحماس شكل أثاثهم، ونوع سيارتهم، وشكل والدهم، ولباس الولد، ولما جاء دور الفتاة وجدت نفسي أشرح لها بإعجاب طريقتها الرائعة في النزول من السيارة، ووصفت لها لون فستانها وكيف أمسكته بيدها اليمنى لتنتزعه من عبث يد الهواء، وأضفتُ من عندي أنها حيّتني برفع حاجبيها.

في عصر الغد أرسلت أمي لهم مع الخادمة بعض الحلويات، كترحيب رمزي بهم في جوارنا. انتهزت الفرصة، مشّطت شعري، وارتديت أفضل ما عندي، وقمت أخطو صوبهم على مهل إلى جانب الخادمة.

طرقت الباب، وكان قلبي ينبض بيدي على شكل طرقات مرتبكة، (ستفتح الباب الآن) منّيت نفسي. طرقت طرقات أخرى بتمنٍّ آخر (وستكون بذلك الفستان الأبيض)، وطرقت بأمنية ثالثة (وستبتسم عند رؤيتي)، ففُتح الباب بيد سيدة باهرة الجمال، هبّت عليّ رائحة عطور منزلية ناعمة، بدا معصم السيدة مصقولاً كنهاية عقد ذهبي، سمحتْ لي بمقدار ما فتح من الباب أن أرى جانباً من قدّها الممشوق. ملامحها بديعة، كانت بشرتها بيضاء وصافية، تتدفق بأنوثتها الغنية على العالم وتجعله أكثر نقاء، وترتدي فستاناً منزلياً لونه وردي. كأنها قطعة حلوى، وكأن عيني في تلك اللحظة لساني.

شعرت بأنني كبرت فجأة، سخن ظهري وتزحلقت عليه قطرات

العرق، رغم أن عمري لم يصل بي لمعرفة مواصفات الجمال، إلا أنني استطعت تقييمها بملكة جمال عندما وصفتُها لأمي بعد ذلك.

قالت وهي تزيح خصلة من شعرها الأسود الحريري عن وجهها:

- تفضل.. ماذا تريد؟

تداركتُ ارتباكي ونطقتُ الجملة التي كرَّرتها مراراً بيني وبين نفسي قبل طرق الباب:

- هذا بيتنا (أشرت) أمي تسلّم عليك، وتطلب منك التفضُّل بقبول هذه الحلويات.

في هذه اللحظة، أثناء قيام الخادمة بتسليمها الصينية، ومض من تحتها وجه الفتاة عينها التي رأيتها يوم أمس، كانت بفستان منزلي وردي يشبه إلى حدٍّ كبير تصميم فستان أمها، وقفت على مسافة خطوتين أو ثلاث مني، قريبة إلى حدّ أشعرني بأننا نقف معاً في اللامكان، حيث لا مسافة ولا أبعاد، حيث تكون عيناها العسليتان المسحوبتان قليلاً للصدغين من زواياهما، وشعرها الممشط على تسريحة ذيل الحصان، ملكي وحدي.

تكهربتُ، ألمّ بي خللٌ في وظائف النطق، كدتُ أعطس وأفرغ عليها نثار أنفي وأفسد الموقف، أحسست أنني أبله أمام هذا الجمال السكري، إنها تشبه والدتها بلا فارق غير العُمْر، تقدَّمت إلى الأمام حتى التصقت بالخادمة، وشددت ثوبها لنعود أدراجنا، انتابتني رعشة مثل رعشة الحمام البارد، شعرت بالانهزام وبعدم قدرتي على تحمل الوضع أكثر من ذلك.

هل لاحظتْ أنني أنظر إليها بإعجاب عندما اختبأتْ عني خلف أمها؟ هل انتبهت الأم أنني ألعق ابنتها ببصري وأتذوق تفاصيلها؟

لا أعرف، كل ما أعرف أنني آخر المطاف اختبأت خلف الخادمة أيضاً.

رحبتِ السيدة باهرة الجمال بنا، وأخذت الصينية بلطف، ثم حمّلتني شكراً لأمي، وقبل أن أبتعد نادت علي:

- يا شاطر.

توقفت، والتفتُّ بكل قدرة حواسي الخمس على الإدراك، أجبتها ببلهٍ:

- من.. أنا؟

- نعم أنت؟

تمالكتُ ارتعاشي وابتسمتُ، أكمَلَتْ:

- تبدو ولداً مهذّباً.. ما رأيك أن تزورنا عصر غدٍ لتلعب مع ولدي حميد؟ هو في مثل سنك، ستكونان صديقين رائعين.

لم أنَم جيداً تلك الليلة، رغم أن أول يوم دراسي يبدأ غداً، شيء ما حرك مخيلتي بمشاهد تصوّرني البطل المخلص وتلك الفتاة هي الضحية المقبلة على الهلاك، ترك فستانها الوردي ظلاله على كل الأشياء من حولي، شعرت أن قوة ما تحركني لأنجذب نحوها انجذاباً يشبه التحرر.

* * *

جاء أول يوم مدرسة كالعادة طويلاً مملاً، هكذا هو اليوم

المدرسي الأول منذ الأزل، مجهداً كالسباحة عكس تيار نهر هائج، وفي اليوم الثاني تصبح المدرسة في عين التلميذ مكاناً خالياً من الحكمة، ويأتي اليوم الثالث بالعذابات النفسية حتى ثاني أسبوع، وبعده تمضي السنة سريعاً كسلسلة متشابهة الحلقات.

وقفت في طابور الصباح، في أول يوم مدرسي جاء بعد كسل العطلة الصيفية حاملاً معه شعوراً نشطاً بالحياة، انتقلت إلى مكان وقوف الصف الأول المتوسط، وكانت مدرستنا تتميز عن باقي المدارس الابتدائية بأنها الوحيدة التي أضيف لها الصف الأول متوسط. كان يقف معي من الأصدقاء ناصر مدلول وحيدر، تغامزنا ونحن نقوم بأداء التمارين الصباحية الرتيبة.

- ولكن أين إبراهيم؟

همس حيدر لناصر، فأشار برأسه وحاجبيه إلى الجهة المقابلة، حيث يقف مع تلاميذ الرابع ابتدائي، فرأيناه يحتلّ بكرشه حيِّز المكان الأول في الطابور ويؤدي التمارين باجتهاد مزيف.

- رسب!!

همستُ باستغراب، فقال حيدر من خلفي:

- ألم يقل لنا إنه الأول على الصف؟

مشينا في طابور خلف المدرِّس في الممرات، حتى دخلنا فصلنا الجديد. كانت رائحة المنظفات تعبق في الجو، ومن الشبابيك الزجاجية التي تمتد على جهة كاملة من الفصل راحت أشعة الشمس تدخل بسهولة، وكان على السبورة بقايا خربشات طباشير، وتاريخ

مضى مسجّل في أعلاها، وأثر جمل ممحوة من العام الفائت. الطاولات جديدة، والكراسي المدرسية المؤذية للظهر جديدة، والمشاعر المتناقضة جديدة، ونحن أيضاً جدد.

اتخذت مكاني كما أوصتني أمي، في أول الصف أمام المدرس مباشرة، حيث تقع عينه باستمرار، وحيث لا مكان للسهو أو للنوم أو حتى للالتفات، أنزلت عن ظهري حقيبتي المحشوة بالدفاتر، والتفتّ أبحث عن صديقيّ أين جلسا، وقعت عيني على ناصر فوجدته ينتظرني ألتفت إليه ليطلعني على شيء ما، أظهر وجهُه مدى سوئه، تحركت شفتاه بكلمات لم أستطع التقاطها، أشرت له بيدي: أن أعِد، فأشار بعينيه إلى جهة اليمين آخر الصف، أدرتُ جسمي بكامله ناحية اليمين، ويا لَلحظ السيئ، وجدت ممدوح المغربية يصفّ دفاتره داخل طاولته، فكدتُ أفقد توازني وأنا جالس.

ارتعبتُ من وجهه الأحمر ووجنتيه المنتفختين، خمّنتُ: لا بد أنه رسب، وقد يكون رسب أكثر من سنة، لأنه يبدو أكبر منّا بسنتين على أقل تقدير، وربما، وهنا مكمن الخوف، مرزوق معنا في أحد الصفوف، وليس كما نظنه في مدرسة أخرى.

لم أنتبه إلى توجيهات المعلم طيلة الوقت، لم أستطِع تحرير ذهني من مضاعفات الخوف، كنت مسلوباً بمرزوق الذي قد يخرج في أي لحظة من مكان ما في الفرصة، بعدما يخبره ممدوح بوجودي، وعندها مَن يعلم من أين سيخرج دمي، ومن يعلم كيف سيكون الألم الذي ستسبِّبه يده الفولاذية لي، أو كيف ستمضي بوجوده بقية الأيام؟ انتهت الحصة الأولى برنين الجرس، وكنت

متهيج الحسّ لدرجة أنني أردت البكاء من رنينه، الخوف من العذاب أشد عذاباً من العذاب نفسه، لكن ما كان في يدي شيء لإزاحته.

مكثت أفكر في طريقة أتأكد بها من وجود مرزوق العبد في مدرستنا، لم يجد رأسي الصغير إلا طريقة واحدة خرقاء ومباشرة، انتهزت فترة ما بين الحصتين، وقمت بصعوبة صوب ممدوح، نظر ناصر وحيدر لما أفعله بصمت واندهاش، حتى توقفتُ أمام طاولته، فرفع عينيه بحاجبيهما الكثيفين، لاحت ابتسامة غامضة على وجهه المحتقن بالدماء؛ ابتسامة وعيد أم ابتسامة تشفٍّ؟ لم أحددها، قلت له بصوتٍ لم أستطع إخفاء رعشة الخوف التي اعترته:

- أريد أن أعتذر من مرزوق.. هل هو معنا في المدرسة؟

أجابني بلهجة واثقة تحمل تهديداً واضحاً:

- تريد أن تعتذر هاه؟ لقد أقسم بشرف أمه ألا يتركك حتى يدميك.

تبادلنا الصمت، ولما قرأ علامات الرعب في وجهي، أتبع:

- لو لم تهرب ذلك اليوم لنالك مثلما نال أصدقاءك من العقاب، ولانتهى الأمر، لكنك سلمان، هربت كما البنات وأغضبته أكثر.

ثم ابتسم بخبث وأكمل:

- مرزوق في «أولى ثلاثة»، في الصف الذي بجانبنا.

لم أستطع تحمّل الخبر، تقهقرت إلى الوراء، أين سأهرب الآن، هاجت مخيلتي بتصورات مخيفة لما قد يفعله مرزوق بي.

رجعت إلى مكاني ودائرة الخوف في نفسي تتسع وتبتلع كل

شيء، بعد الحصة الثانية ستأتي الفرصة، وبالطبع، سيكون ممدوح فرحاً إذا أطلع مرزوق على مكاني، ومما لا ريب فيه أنّ العبد، بما اشتهر عنه من أذى، لن يتسامح معي بأي شكل من الأشكال.

رن الجرس مرة أخرى لتبدأ الحصة الثانية، وليبدأ معها مضيّ الخوف بأفكاري للسعير.

تمالكت نفسي عن البكاء، هل أخبر المدرِّس عن مرزوق؟ وهل سيتركني مرزوق إذا نهاه المدرس عن إيذائي؟ وإذا كفَّ أذاه عني في المدرسة فهل سيكفه عني خارجها؟

بينما أنا في هذا التوهان، دخل تلميذ جديد إلى الفصل، دخولاً مدروساً ومتقناً، طرق الباب، وقلّما كنا نطرق الباب، صافح المدرس، ولم نكن نفعل ذلك، ثم سلمه ورقة من وكيل المدرسة تطلب إضافته في كشف الطلاب، ووقف بأدب ينتظر حتى يأذن له المدرس بالدخول.

كان هذا الصبي «حميد شاكر» جارنا المستأجر، ابن السيدة باهرة الجمال، وأخو الفتاة الجميلة، يبدو لاعب كرة ماهراً، طويل الساقين، يشبه إلى حدٍّ ما أمّه لولا أن بروز ملامحه يمنحه مسحة ذكورية، كان شعره الأسود ممشطاً ومدهوناً كما رأيته عصر أمس، وهناك رائحة عطر انبعثت منه عندما مرّ بجانبي يمشي بثقة إلى أحد المقاعد الشاغرة في الخلف، وضع عنه حقيبته وأخرج منها دفتراً فتحه على أول صفحة، ثم صفّ فوقه قلم رصاص وممحاة ومبراة، وجلس شابكاً يديه على الطاولة باستعداد من يهمّ بالنهوض. سأله المدرس:

- هلّا عرفتنا بنفسك؟

وقف وقفة أكثر وثوقاً من وقفة المدرس، تنحنح مثل مذيعي الأخبار عندما يبدؤون قراءة النشرات، وقال بنبرة فخر:

- اسمي حميد شاكر.

- حميد (قال المدرس) هل درست الابتدائي هنا أم أتيت من مدرسة أخرى؟

- أتيت من مدرسة أخرى.

ألقى علينا المدرِّس محاضرة عن أهمية التفوق في صنع المستقبل، وأن التلميذ الكسول لن ينال مكانة مرموقة في المجتمع، لأن المجتمع بطبعه يعلي من شأن المتفوقين، ونصحنا بضرورة المذاكرة والحفظ والانتباه لشرح المدرسين، ثم قذف سؤالاً تلقّفه التلاميذ بحماس: ماذا تريد أن تصبح إذا كبرت؟ وتوالت الإجابات الحالمة: طبيب، مهندس، طيار، ضابط، قبطان.

لم يكن مزاجي رائقاً لأدخل معهم في سباق الأحلام ذاك، من الصعب أن أفكر بشيء غير سلامتي في هذه اللحظة. باغتني المدرس لما رآني متيبساً:

- ما اسمك.

- سلمان بدر.

- قفْ وقلْ اسمك.

- حسناً.. سلمان بدر.

- ماذا تريد أن تصبح إذا كبرت؟

- لا أعرف.

- كيف لا تعرف، لماذا أتيت إلى المدرسة إذا لم يكن لديك هدف تطمح إليه.

وجّه الكلام إلى عموم الفصل:

- ليس المقصد من المدارس تعلّم القراءة والكتابة وتعلم الحساب فقط، قد تتعلم هذا خارج المدرسة، المقصد هنا أن تتسلسل في تعليمك حتى تصل إلى المكان الذي تريده وتخدم نفسك وعائلتك وبلدك، أليس كذلك؟

هتف الجميع: نعم.

فقال المدرس مبتسماً بصوت متأنٍّ:

- أعتقد يا سلمان أنك ستكون ضابطاً في الشرطة، أم ماذا؟

- هذا صحيح.. أريد أن أكون ضابطاً.

- وأنت حميد (قال المدرس) لم تقُل لنا ماذا تريد أن تصبح إذا كبرت؟

وقف حميد، وأجاب:

- أريد أن أصبح ضابطاً في الجيش.

- ولماذا في الجيش تحديداً؟

- لكي أحمي وطني.

ابتسم المدرس، وقال بصوت فخور:

- صفِّقوا لحميد.

ضجَّ الصف بالتصفيق، ورأى المدرس أن حميد يستحق الأفضل، فغيّر مكان جلوسه، اختار أن يبدل تلميذاً قد احتل

بالمصادفة الطاولة التي على رأس العمود الذي يلي عمودي، له منظر الغباء إذا تجسّد في شكل تلميذ، وكان قد أجاب عن سؤال المدرس بأنه يريد أن يكون طبيباً.

اهتم المعلم بحميد اهتماماً خاصاً، فلعله توسّم به الذكاء والفطنة، وأظهر حميد براعة في ترتيب أدوات طاولته، وفي اختيار الإجابات الصحيحة التي عرض المدرس عليه أسئلتها بشكل سريع ليكشف عن ذكائه، وليبتسم كما يفعل المدرسون عندما يكتشفون تلميذاً نجيباً.

باغتني رنين جرس الفرصة، لم أكن حسمتُ أمري ماذا سأفعل إزاء تهديد مرزوق. جرّني ناصر من يدي إلى خارج الفصل، وتبعنا حيدر، سألاني في طريقنا إلى الكافتيريا: ماذا سأفعل الآن؟ قلت لهما إنني قد أشكو للاختصاصي الاجتماعي أمر مرزوق عند أول قبسة شرّ أراها من جانبه، التفتُّ إلى الوراء وإذا بحميد يسير باتجاهنا نفسه وحده رافعاً رأسه كأنه ابن ملك.

عندما انتهت الفرصة، عدت إلى الصف فوجدت ممدوح جالساً على طاولتي، وقد ألقى حقيبتي خلف الباب. نظر إليّ بتحدٍّ كأنه يقول: هيّا تجرأ واعترض. لم أفتح فمي، أخذت حقيبتي وتراجعت بصمت إلى مكان جلوسه في الخلف، محاولاً التظاهر مع ابتسامة كاذبة بأنها مزحة من صديق عزيز سأحتملها بصدر رحب. خُيِّل إليّ أن الجميع يُشفق عليّ، وراحت نظراتهم تقضم كرامتي.

مرّت الحصص تباعاً من غير أن يظهر شبح مرزوق العبد، حتى أعلن الجرس انتهاء الأزمة، فتح الحارس البوابة الخارجية، فخرج

التلاميذ يركضون فرحين بفك الحصار، وقفتُ أمام الباب مع ناصر وحيدر وإبراهيم أنتظر وصول أمي، ففاجأني ممدوح المغربية بنداء مستعرِض:

- هييي سلمان، مرزوق لم يحضر اليوم، لكنه سيأتيك غداً في الفصل.

حاولتُ أن أخفي خوفي بابتسامة استدعيتها لوجهي، فأتت ممسوخة، وأبرزت هلعي أكثر.

تبادلنا النظرات المتسائلة أنا وناصر وحيدر وإبراهيم؛ لن يكون خطر مرزوق عليّ وحدي، سينال الجميع منه نصيباً مقسوماً، وقد يتكرَّر مع الوقت.

وقفت السيارة الكابرس البيضاء أمام الباب، كان شاكر والد حميد يرتدي زي الجيش، ومعه في الكرسي الخلفي تلك الفتاة الجميلة التي لم أعرف اسمها بعد، ترتدي زي طالبات المتوسطة، وتربط ضفيرتي شعرها بشرائط حمراء، شعرت بتحسن نوعاً ما عند رؤيتها، فتح حميد الباب الخلفي ووضع حقيبته ثم ركب، فتبسّم وهو يحدث أخته. بادلته الابتسامة بأخرى عذبة، ضحك والده خلف مقود السيارة، ثم سار واندمج بالازدحام.

كنت لا أرى إلا سيارتهم بين كل السيارات، يناور بها أبوهما حتى خلَّصها بتمكن من الاختناق المروري الذي يكتم الشوارع دائماً في أول يوم دراسي. ركضت بعيني خلفهم حتى فقدتهم عندما انعطفوا. عندها أحسست برغبة واضحة في الصراخ.

* * *

تصارع في داخلي شعورا الخوف والحب، الخوف من مرزوق، والحب للفتاة ذات الرداءين الأبيض والوردي. لا علم لي كيف أصبح الإعجاب فجأة حباً، لكن في مثل نقاء تلك السن التي كنتُ بها يكون تداخل العلاقات أمراً لا يستحق الدهشة.

أصبح لكل شعور اتجاه معاكس للآخر في قلبي، للأعلى مع الفتاة، وللأسفل مع مرزوق، كانا المرض والترياق، للخوف مثبطاته وللحب محفزاته.

أغلقتُ عليّ غرفتي بعدما تركتْ نفسي رغبتَها بالغداء، شعرتُ بحاجة إلى التفكير في وضعي الراهن، وفيما سأفعله غداً؛ من سيهزم من في داخلي؟

رغم أنه لا دروس في أول يوم مدرسي إلا أنّ أمي تفضل أن تعطيني شرحاً سريعاً لمحتويات الدروس قبل أن يشرحها المدرس، ثم تتأكد بنفسها في اليوم التالي عبر قياسها لاستيعابي من أنّ شرحه وافٍ، وكان أفضل وقت للدراسة هو العصر، الوقت الذي يهدأ فيه الدماغ من دوار الصباح كما تقول.

لكنها أجّلت الدرس للمساء، في ذلك اليوم، متعللة بأنها ستقوم بزيارة ترحيبية لجيراننا المستأجرين الجدد، انتفض عِرْقٌ بقلبي، أزاح عني قلق مرزوق، فطلبتُ منها أن تصحبني معها، رفضتْ أوّلَ الأمر، ولمّا أقسمتُ لها بأن جارتنا طلبتْ مني، يوم أمس، أن أزورهم لألعب مع ابنها، صمتتْ قليلاً أمام المرآة وهي ترسم عينيها بقلم الكحل، ثم بعد سلسلة قصيرة من التعليمات التي تحدد آداب الزيارة، سمحت لي بمرافقتها.

فتحت السيدة باهرة الجمال لنا الباب وهي في كامل أناقتها، كأنها على علم بزيارتنا، صافحتْ أمي وتبادلتا تكرار السلام الرسمي الروتيني، ثم مسحت رأسي بيدها الناعمة ومررتها على خدي، أصابتني يدها بشعور يشبه الطيران، دعتنا إلى الداخل، قطعتُ الحوش الصغير وأنا ملتصق بأمي، كان البيت مكوناً من أربع غرف وصالة فسيحة في الطابق الأرضي، يشبه تصميم بيتنا تماماً، وكان الأثاث مرتّباً كأنه فُصّل ليطابق هذه المساحة. جلسنا في صالة الضيوف، وكان أثاثها عبارة عن مقاعد واطئة ذات أرضيات إسفنجية لونها أزرق، متناسقة مع لون الغرفة الوردي، تفحصت اللوحات الزيتية الأربع التي عُلِّقت على كل جدار من جدرانها؛ اللوحة الأولى عبارة عن رسمة متفائلة للشمس، والثانية كان الصباح فيها يظهر على وادٍ أخضر، والثالثة كانت للقمر لحظة اكتماله، أما الرابعة فكانت لليل وهو يخيم فوق قرية أوروبية، تسلسل رائع في ضبط المواقيت على الجدران.

لم يكن هنالك تلفاز في هذه الغرفة، كغرفة الضيوف في بيتنا، والتي خلصتها أمي من هذا الجهاز لأنه يقطع التواصل والمودة، وبدلاً منه كان هناك منضدة طويلة صُفّت عليها صور العائلة، وكان أكبرها وأبرزها صورة الأب مبتسماً في لباسه العسكري.

كانت ابتسامة أم حميد متوهجة وصادقة، جعلتنا لا نشك بأنه مرحَّب بنا في بيتها. أحضرت صواني الحلويات، وأباريق القهوة والشاي، ووضعتها فوق طاولة صغيرة بشكل ينمّ عن ذوق راقٍ، ثم وقفت عند السلم، ونادت ابنها حميد ليلعب معي.

بأقل من خمس دقائق وقف حميد أمام أمّي ببدلة رياضية، صافحها بأدب، ثم رحب بنا بعبارات مرتبة يبدو أنه يحفظها مسبقاً. ابتسم وهو يمدّ يده اتجاهي، انتابني الخجل فتأخرت قليلاً، حتى نبهتني أمي بنبرة تحمل توبيخاً خفياً:

- حميد يريد أن يصافحك يا سلمان.

مددتُ يدي بخجل وصافحته.

سحبني بيده، وصعدتُ السلم وراءه بينما نظراتُ عيني تتبعثر في المكان بحثاً عنها.

- اسمك سلمان.. رأيتك اليوم في الفصل.. ألم تعرفني؟

- أوو.. تذكرتك الآن، أنت حميد شاكر الذي يريد أن يكون ضابطاً في الجيش.

شعرتُ بأنني على موعد مع رؤيتها الآن بفستانها الوردي الجميل، وهي جالسة تشاهد التلفاز، أو ترسم على ورقة.

دخلنا غرفته، وكانت نظيفة ومرتبة، مفروشة أرضيتها بفرش خُضرٍ، تحتوي على دولاب ذي ثلاثة أبواب، ومنضدة ملتصقة في الجدار، بجانب الشبّاك، صُفّ عليها زجاجة عطر ومشط وعلبة دهن تصفيف الشعر، وترتفع فوقها مرآة دائرية، وكان السرير قبالة الشبّاك أبيض مزخرفاً بورود محفورة فيه، وفوقه غطاء أحمر، وكان هناك أيضاً دولاب آخر ذو رفوف أفقية، صُفّت عليها بعض الكتب صغيرة الحجم، تليها ألعاب كثيرة، وبجانبه مساحة أرضية صغيرة احتلها تلفزيون صغير، خرجت منه أسلاك اتصلت بجهاز الألعاب الإيتاري

الذي خرج منه سلكان انتهيا بجهازَي تحكُّم ذوي مقبضين عموديين زرع في رأسيهما زر أحمر.

- كيف ترى مدرستنا؟

سألني بشكل مباغت، فأجبته بلا اكتراث وأنا أرمي بنفسي على سريره:

- بودي لو تحترق.

فقال باستياء وهو يشغل التلفزيون:

- من الخطأ أن تتمنى هذا لمكان سيجعل منك شخصاً أفضل.. المدارس هي المصنع الذي ينتج المستقبل، هكذا يقول أبي.

لم تعجبني نبرة التعالي في حديثه المثالي عن المدرسة، غيّرت الحديث:

- هل لك إخوة؟

- لدي أخت واحدة فقط، صفاء.

قلت في نفسي: اسمها جميل.

- هل هي أكبر منك؟

- نحن توأم.. وأنت؟

- كان لدي أخ أكبر مني مات صغيراً (هزّ رأسه تأسفاً).. ولكن أين صفاء لا أراها؟

- ذهبت تشتري مع والدي بعض الدفاتر.

لعبنا لعبة الطائرة في الإيتاري، مللت منها سريعاً، كنت قد

أتلفت هذه اللعبة وجهازها قبل سنة زهداً فيما تقدمه من تسلية، ضقت من الغرفة ذرعاً.

- هل ستتأخر صفاء.

- نعم.. لم أسمع ماذا قلت؟

- قلت.. قلت.. ما رأيك أن نخرج إلى الشارع.

تردَّد، ثم قال إن عليه استئذان أمه أولاً، بشرط ألا نخرج لأبعد من شارعنا. وافقتُهُ، ثم نزلنا ليستأذنها.

أذنت له، وأوصته بأن يحرص عليّ، فوعدها بذلك، وخرجنا وأنا أسأل نفسي مستهزئاً: من يجب أن يحرص على من؟

جلسنا أمام الباب، سألني بغتة:

- لماذا غيّرت مكان جلوسك سلمان؟

احمرّ وجهي خجلاً، وتلاحقت أنفاسي، أجبته:

- نعم.. أنا.. بصراحة.. حسناً، استأذنني ممدوح لأنّ نظره ضعيف.

- هل تعرَّفت على أبناء الجيران؟

- نعم.. إبراهيم سعد، وناصر مدلول، وحيدر.. يسكنون أول الشارع، وهم معنا في المدرسة، ستعرف ناصر وحيدر لأنهما معنا في الفصل.

- أوو.. شيء جيد، ستكون المذاكرة ممتعة لو اجتمعنا معاً.

أغاظني أسلوبه، هل هو فعلاً قويم السلوك؟ أو أنه يستعرض أمامي جدّيته في الأمور ليظهر بدور الكبير العاقل؟

بعدما جلتُ بعيني خلال المنطقة، وتأكدت من عدم وجود شبح مرزوق، قلت:

- ما رأيك أن نطرق باب ناصر؟ أراهن أنه ينتظر الآن من يخرجه من المنزل.

فقال وهو ينهض:

- حسناً.. هيا بنا.

أمضينا ما بين أذان العصر والمغرب في الساحة نركل الكرة بتكرارٍ يجلب الملل، حتى طبَّق علينا حميد قواعد لعبها؛ شوطان لكلِّ مباراة، وحسب بساعته الإلكترونية وقت كل شوط، فعّل الأهداف، وقسمنا فريقين، هو وإبراهيم فريق، وأنا وناصر وحيدر فريق، وأذكى روح التحدي، وطبق علينا «البلنتي» و«الكورنر» و«الفاول»، ومنعنا من إمساك الكرة بيدينا إلا الحارس، قال حميد وهو يضع حدود المرمى من الأحجار:

- القواعد وضعت لإضفاء المتعة، حياة بلا قوانين مملة، كما مباراة بلا قواعد، هكذا أخبرني أبي.

لم نصبر على هذه القيود أول الأمر، لكننا وجدناها ممتعة بعد الشوط الأول.

كان كلّ شيء أبيض وأزرق سماوياً، ووسط ذلك البياض بدت الساحة بمرحنا كأنها تشارك السماء في لونيها الساميين. أظهر حميد مهارة لا تجارى في هذه اللعبة، سجّل علينا أهدافاً كثيرة بسهولة، كان الأمر يتطلب جهداً حقيقياً في تحريك الكرة للاتجاه الذي نريد،

سقطنا كثيراً أثناء مناوراته، أمسكنا طرف فانيلته الرياضية الحمراء، حاولنا عرقلته، لكن هذا لم ينجح في إيقاف تقدمه.

جلس إبراهيم عند المرمى بعدما اطمأن لعدم وصولنا له، وشغل نفسه برسم خطوط عبثية على الأرض، وبمشاهدة المارة أثناء انهماكنا في اللعبة.

اجتهد فريقنا في محاولاته بالمحافظة على الكرة، لكن حميد كان ماهراً في مراوغاته وفي تحكُّمه بمسارها وخطفها منّا، كأنها تتدحرج بأمر من عينه.

لما بدأ قرص الشمس بالغروب صفّر إبراهيم حينما لمح شيئاً يركض في البعيد، وصاح:

- هييـ. . انظروا هناك عند الزقاق.

رأينا كلباً ضالاً له جسد مثالي يستحق المباغتة، وكنا قد انقطعنا عن ممارسة قتل الكلاب لمدة ستة أيام، وشعر كلٌّ واحد منا بجوع مفاجئ لإزهاق روح كلب، نظرنا إلى بعضنا لقياس مدى الاستعداد، برقت أعيننا بتوقٍ وتلذُّذ، فاستللنا عدة صيد الكلاب، التي ندفنها في الساحة، ثم انطلقنا نسوقه إلى زقاق السيارة المتهالكة؛ ركض وراءنا حميد وهو لا يعرف طبيعة ما يجري، أحطْنا بالكلب، تأكدتُ جيداً من أنه كلب ضالّ بعدما انخدعنا بكلب مرزوق، رفعت عصاي ذات الرأس السكيني، وتقصيت مواضع الموت فيه، حتى وجدت أحدها ملائماً لخروج روحه، ثم قفزت عالياً وغرستها في رقبته، وسحبتها والدم يقطر منها.

عوى الكلب بتوجع كأنه يتأوه مثلنا، واستدار يريد الهرب بما

تبقى فيه من روح، فوجد عصا حيدر تنغرس بقضيبها في صدره، فخرّ يتحشرج على الأرض، مثيراً الغبار حوله، وراسماً منظراً جليلاً من مناظر النهايات، ارتعش جلده كالملسوع بالماء البارد، ثم اهتزّ جسده كالمُصاب بالحمى، ثم خمد هيكله كنائم أبدي، ثم غاب عن الوجود.

لمّا أردنا العودة، وجدنا حميد ملقى على الأرض:

- ماذا جرى يا حميد.. لماذا تبكي؟

سألناه، لم يتكلم، استمرّ في مسح دموعه فقط، تبادلنا نظرات الاستفسار، وجلسنا على الأرض معه ننتظر منه إيضاحاً للغز الذي ذرفته عيناه.

- لا بدّ أنه تذكر شيئاً أبكاه.

برَّر إبراهيم بغباء.

صمتنا واستمررنا ننتظر جواباً، ما الذي ألمّ به؟ هذه أول مرة نجرِّبه كصديق، لا نعرف عنه إلا أنه يبدو ولداً مهذباً يدهن رأسه بمصفِّف شعر، ويريد أن يصبح ضابطاً بالجيش، غرق وجهه بيديه، حتى سقطت على الأرض قطرات من دموعه، هزّه حيدر وحاول إنهاضه بغير جدوى، جلسنا على هذه الحال قرابة عشر دقائق ننتظر، يتطلع كلّ منا بالآخر ويمطّ شفته استغراباً، في النهاية قام من مكانه، وقمنا معه.

(أيكون بكى لأنه رأى كلباً يموت؟) سألتُ نفسي، ورحنا نكثف صمتنا في طريق عودتنا إلى الساحة، لم يكمل معنا الطريق، مال إلى

بيتهم، ولم ينبس ببنت شفة. أشرتُ لهم بتركنا وحدنا، وتبعتُه إلى البيت.

قال لي وهو يمسح دموعه:

- لا بدّ أن تندم على ما فعلتَ.. أتسمعني؟ لا بدّ أن تندم، وألا تعود لمثل ذلك.

لم أفهم هل هو تهديد أم نصيحة:

- ماذا تريد بالضبط.. هل ستخبر أمي بما حصل؟

- وهل تخاف من أمك فقط؟ ألا تخاف من الله؟

كان يقول اسم الله بإيمان لم أعتدْ عليه، شعرتُ معه برهبة عميقة لم أشعر بها من قبل.

- وما دخل الله في الموضوع؟

سألته بتهكم، فقال بنبره حزينة:

- هو وحده من يملك الموت.

سكتُّ أفكر بما قاله، حتى قلت:

- وهل اختار موت أخي؟

توقفنا، وقام كلٌّ واحد منّا يحدّق في عين الآخر، هل اختار الله فعلاً موت أخي؟ انسحب هذا السؤال إلى معامل التفكير في عقلي، ورحت أقلّبه سارحاً في أن هذا السؤال جاد في كونه سؤالاً ويريد إجابة شافية لا يهيئها لي عقلي الصغير. استمر هذا التحديق الخانق لبعض الوقت حتى كسره حميد عندما اقترب مني خطوتين، وقال بصوت متيقّن وعيناه تنفذان إلى أعماقي:

- انظر.. لقد اختار لك أن تعيش.

ارتعدتُ، كان من الممكن أن يختار لي أن أموت بدلاً من أخي، رغم بساطة عبارته وسطحيتها إلا أنها هزّتني، هذه حقيقة، سحبتُ نفسي ببطء ثم استدرتُ، ومضيتُ صامتاً إلى البيت.

لم يكن عقلي الصغير بحاجة إلى شرح فلسفي عن ماهية الحياة وأسباب استمرارها وحقيقة انتهائها إلى عالم آخر مجهول، كان حديثي مع حميد يتناسب كلياً مع معرفتي للوجود وخوفي من الفراق الحتمي الذي أدير له ظهري في كل مرة يطرق الموت باب تفكيري، لذلك كان له بالغ الأثر في عزمي على ترك التسبب بالموت. ولم أعد بعدها إلى قتل الكلاب أبداً.

في الليل لم أستطع النوم، عاد شبح مرزوق يختبئ خلف جفوني، كلما أغمضت عيني انبجس من الظلام وجهه الأسود غاضباً مكشراً عن أنياب حادة تشبه السكاكين، تركت فراشي ونزلت إلى الصالة، فشعرت بحاجة شديدة إلى رؤية الشارع، فتحتُ الباب الخارجي ثم جلست على العتبة، كان الليل يتكاثف إلا فيما عند أعمدة الإنارة. نظرت إلى شجرة صفصاف صغيرة ووحيدة زرعت أمام بيت جيراننا قبالتنا، شجرة أثارت فيّ رغبة الاستغراق في التأمل:

- لماذا اختار الله لي أن أعيش؟

* * *

لم أنم جيداً، وعندما استيقظت في الصباح شعرتُ بالغثيان،

فلم أتناول فطوري كاملاً. أخبرت أمي بعدم قدرتي على السير، لكنها ظنت أنني أتملص من المدرسة، ارتفعت حرارتي في الطريق بشكل غير طبيعي، وفكّرتُ: لا بد أن هذه أعراض السهر.

نزلت من السيارة نزولاً متعثراً، شيء غريب كان يميد بالأرض من تحت أقدامي ولا يجعلها تطأ بثبات. عند باب المدرسة شعرت بضغط شديد يحرك أحشائي، توقفت ممسكاً ببطني. انقبضتْ عضلات معدتي فاستفرغتُ ما فيها، رنّ منبه سيارة أمي من خلفي، وكانت تشير إليّ بالرجوع.

أكلُّ هذا خوف من مرزوق؟ أكان جسدي يتصرف رغماً عني ويصطنع لي العذر؟ تركت التفكير بهذه الأشياء غير المجدية، وتمددت في فراشي.

لم أخرج من غرفتي حتى نادتني أمي عند العصر لأقابل حميد، الذي جاء يحمل معه دفتراً ويريد أن يطلعني على ما شرحه مدرس اللغة العربية اليوم، شتمته في داخلي، هل هذا ما يبحث عني لأجله: الدراسة؟ نحن لا نفوّت فرصة للعب، وهذا المتذاكي يطرق بابنا ليضع أمامي مستجدات الدراسة. تباً لك حميد، أي كلب ممل أنت!!

- سلامتك، لماذا تغيبت اليوم، لقد كان يوماً رائعاً.. تمنيتك موجوداً.

غيّرتُ الموضوع كلياً، وقلتُ:

- هيّا بنا نذهب إلى ناصر.

- جئتُك بدرس اللغة العربية الذي شرحه المدرس اليوم.

أعدتُ بلامبالاة وأنا أتجاوزه إلى الباب:

- هيّا بنا نذهب إلى ناصر.

وجدنا إبراهيم سعد وناصر مدلول في انتظارنا عند بابَي بيتيهما، نهض ناصر لما رآني وجاءني يقول بفزع:

- أين أنت؟ جاء مرزوق يبحث عنك اليوم، لا بد أن المغربية أخبره.

توقعت أن يحصل هذا فسألته:

- ماذا فعل عندما لم يجدني؟

- سمعه حيدر يقول لممدوح: أين سيذهب مني!

شعرت بأنني مقبل على مهلكة، مهما كان نوع الخطر فإن النفس تكبره، وتخترع له أبعاداً أخرى لا تنتمي إليه، وكنت صغيراً وقتها، لا أستطيع أن أضع حدوداً للخوف، فتركته ينطلق بي كالكلاب الضالة في الخلاء، لم أتمالك نفسي، جلست شبه منهار على الرصيف، وجلس ناصر بجانبي يمدّني بالهلع:

- ماذا ستفعل؟ سيأتي غداً ويبحث عنك، فإذا وجدك فلن يتركك بلا أذى.

امتدّ السكون بيننا، إلى أن تدخل حميد متسائلاً:

- مَنْ مرزوق هذا؟ ولماذا أنت خائف منه إلى هذا الحدّ؟

أحرجني حكمه بأنني «خائف منه»، ابتلعته بمرارته، أجابه إبراهيم سعد، وشرح له بالتفصيل مَن مرزوق، لكنه حين مرَّ على ما حصل في الساحة يوم ضربوا ناصر أسقط حادثة الصفعات، تجاوزها

متعمداً، لأنّ استرجاع تفاصيلها يسبِّب له الحرج، اكتسى وجه حميد بتعبير صارم، وقال:

- يجب أن تواجه المشكلة، لا تهرب منها فتكبر، هكذا علَّمني أبي، قف بوجهه وتفاهم معه.

- أنت لا تعرف مَن هو مرزوق العبد!

قالها ناصر وهو يتحسَّس وجهه بيده، وزاد:

- إنه فتى قوي، وشرير، لا أحد يستطيع الوقوف بوجهه، حتى إنه يصارع الكبار ولا يخاف من أحد البتة، ويقولون إنه إذا أعماه الغضب يضرب بالسكاكين ولا يتردَّد.

فقال حميد ينصحني:

- أبلغ والدك لينهي لك الموضوع.

«لو تعرف والدي لما اقترحت هذا الاقتراح» قلت في نفسي.

أكمل:

- لا تسكت هكذا يا سلمان، أنت بهذا تشاركه في النيل منك.

استفهمتُه كيف أنال من نفسي معه؟ فوقف أمامي وأجاب بصوت رجولي ناضج:

- في هروبك دعوة للملاحقة.

دار الصمت بيننا مجدداً، كان يستخدم قوة عينيه ليقنعني، اندفع وجه مرزوق ورفيقيه في مخيلتي، سمعنا أصوات أشخاص كبار تقترب، فقمنا إلى الساحة.

* * *

عدتُ إلى البيت مبكراً بصحبة حميد، بعدما انتشرت في السماء زقزقة العصافير المتوترة قبل غروب الشمس، وأصبح الجو يستدعي شعور الاكتئاب إلى النفس.

قال حميد بصوت هادئ:

- لا تخف سأكون معك غداً، سأنتظرك عند باب المدرسة.

رمقته بنظرة لم يرَ فيها مدى ازدرائي له، واحتقرتُه في داخلي بشدة، هل هو اندفاع صبياني يفعله الصبية عادة ليظهروا بصورة الأبطال عند أصدقائهم الحديثين؟ عليه أولاً أن يرى ضخامة مرزوق ثم ليعدني بعدها بما شاء.

افترقنا ودخلت البيت، فوجدت أبي جالساً في الصالة ببيجامة النوم التي نادراً ما يلبس غيرها حتى عند خروجه، بالتأكيد لن أخبره كما اقترح حميد، فسيوبخني ويشتم أمي، وسيعتبرني عاراً عليه.

سألني عن المدرسة، لم أجبه، أعطيته ظهري وصعدت إلى الأعلى، تبين من وجهي أنني واقع في معضلة، دخلت غرفتي بتشاؤم، فدخل ورائي ووقف عند الباب ثم سألني إن كان هناك مدرس آذاني وأريده أن يؤدبه، أجبته بالنفي. نظر إليّ ملياً بينما يده تخرج سيجارة من علبتها وتضعها بين شفتيه، تركني وأغلق الباب وراءه لتتمدد الظلمة فوقي، ولأنغمس بأعماق مشكلتي وحيداً في ظلام تكوّن منه وجه مرزوق، يطل فوق الدولاب، وأستطيع رؤيته بوضوح، عبس وجهه بوحشية وخرجت أسنانه بشيطانية مرعبة، ظل يشوش تفكيري حتى استسلمت في النهاية للنوم.

* * *

وجدت حميد واقفاً في انتظاري كما وعدني عند بوابة المدرسة في الصباح، لوّح بيده في الهواء، قالت أمي بإعجاب:

- يا له من فتى نشيط!

لم يكن وجوده مشجعاً لي. حميد ولد لم تصقله الشوارع، ولا يبدو من مثاليته أنه دخل في تجربة شجار قط، لكنه يصرُّ على تمثيل دور الفتى القوي بتصنُّع مكشوف.

حيّاني، وكانت ابتسامته ملء وجهه. كان مسروراً إلى حدٍّ أشعرني بالخيبة، رحنا نمشي بحقائبنا المثقلة نتبع مسيرة التلاميذ، في المدخل المرصوف ببلاط إسمنتي مربع، والمحفوف بسياج من أشجار الياسمين المشذبة على مستوى واحد، في طريقنا باتجاه الفصول. كان بينهم أطفال الأول الابتدائي سريعو البكاء، وصبية الأول متوسط الراغبون في النضج المبكر، الجميع يرتدي الألوان نفسها، الرمادي للبنطلون، والأبيض للقميص، ليظهروا بأطوالهم المتفاوتة وأحجامهم المختلفة وألوانهم المتفقة كالفوضى المنظمة.

بدأ جسدي باختلاق الأعذار، شعرت بالغثيان مجدداً، سألني حميد:

- هل أنت على ما يرام؟

اغتصبت ابتسامة كاذبة وهززتُ رأسي. دفعت نفسي إلى الفصل دفعاً، حتى وصلت بصعوبة إلى الطاولة التي تركها لي ممدوح، لم أكن منتبهاً لأحاديث حميد، الذي ذهب يعدِّد على مسامعي عدداً من الحلول التي يمكن أن تضع حداً لمشكلة مرزوق العبد، وضعنا الحقائب في الصف، ثم توجهنا إلى الساحة لأداء تمارين الصباح.

تمنيت أن أكون غير مرئي، أن أختفي.. أن أذوب.. أموت.. أن أكون لا شيء، وحده الخوف يجعل المرء يتجه إلى الأسفل، وهذا ما كنت بصدده. وقعت عيني على ممدوح المغربية وهو متشائم كعادته، يمشي بكسل في الممر بين الصفوف، لم ينتبه لي في الطابور، لكن عندما عدنا إلى الفصل تصادفنا عند الباب، ابتسم ابتسامة ذات مغزى متوعداً، قطّبت وجهي، وكان الارتباك يرعش جسدي، عرفت أن الأمر لن يكون سهلاً، دفعني حميد بلطف، كأنه يشد أزري، أما ناصر وحيدر فقد جلسا ينظران بخشية إلى تعابير وجهي المتصلبة.

انقضت الحصة الأولى وها هي الثانية على وشك الانتهاء، (ليتها لا تنقضي) تمنيت في قرارة نفسي.

نظرت إلى حميد أمامي على اليسار، أتمعن بملامح البالغين التي اعترت وجهه من جانبه الأيمن وهو يتابع المدرِّس بتصميم فائق على فهم كل ما يصدر منه، لم يبدُ أنه تلميذ في الأول متوسط، كان حريصاً على الدرس مثل عالم يتتبَّع مسار فكرة معينة، لا يرفع عينه عن المدرِّس، ويدوِّن كل ما يتفوه به، هل هو فعلاً قوي كما يتصرف وشجاع مثلما يظهر من وثوقه؟ شعرت أن في داخلي شيئاً ما ضده. كان متماسك البناء، وكنت أتهدم.

دق جرس الفرصة، وكان رنينه يعني لي موعداً مع الموت.. خرجنا إلى الكافتيريا، سأواجهه الآن، سيقف أمامي الآن، سيضربني أمامهم الآن، كنت أردد هذه التوقعات الانهزامية في سرّي حتى دخلنا صالة الكافتيريا. ظهرت صفوف الطلاب الأفعوانية أمام شبابيك بيع

الطعام كأفاعٍ طويلة تزحف، وقفنا بدورنا في الأخير، نتقدم مع تقدم السير ببطء، ضاقت صالة الكافتيريا في عيني رغم اتساعها، مشّطتها ببصري، بحثاً عن وجه حجري أسود منحوت الملامح.

وقف المدرسون يتحدثون عند الباب، تاركين للطلاب حرية رمي العلب الفارغة والركض فوق بقايا الطعام.

كانت الفوضى تهذي بضوضائها في المكان، ضاجة بالصخب المشوش، بأصوات ركض الأقدام وأصداء الأصوات والصرخات مما منعني من التركيز، شعرت بأن الهواء ملوث بأنفاس الجميع.

صاح حيدر كالمقروص أثناء انهماكي في عملية تشاؤمي:

- ها هو.. هناك مع ممدوح عند الباب.

نظرت إلى الباب، وتجاوزت النظر إلى الوجوه للنظر إلى القامات، الشيء الذي يميزه بسرعة، فرأيت مرزوق العبد، يرتدي مثلنا قميصاً أبيض وبنطلوناً كحلياً وحذاءً أحمر، ويخترق بصلابة طوله الفارع الجموع، تقدّم بلا نظام حتى وقف أمام الشباك مباشرة غير عابئ بالطوابير وبالمدرسين، اشترى هو والمغربية بعض الطعام. شتم البائع، وضرب في طريقه صبياً على قفاه، واتجها إلى زاوية الكافتيريا حتى اختفيا وراء الفوضى.

هبط ضغط دمي فجأة، انكمشتُ، وازدادتْ نبضاتُ قلبي وشعرتُ بالبرد. قرأ الرفاق في وجهي التغيّر الذي طرأ عليّ، فتركوني أذهب لأفترش زاوية الكافتيريا الأخرى، بعيداً عن عين مرزوق، تركت لهم مصروفي ليشتروا لي بعض الأكل الخفيف.

كانت لحظات رهيبة، عاصفة، جلست بها منعزلاً، رغماً عن

وجود كل المدرسة معي، أمضغ ذعري وأحاول قدر المستطاع بصقه، بدأ بطني يمغصني بإصرار.

- لا تقلق.

قال حميد مستبدلاً بها كلمة «لا تخف»، وهو يربّت على كتفي، وزاد بلهجة المتيقن من قدرته:

- لن يؤذيك.. أعدك بذلك.

يعدني وهو الذي بكى لرؤية كلب يموت!! ههه، تخيّلت كيف سيكون وجهه الواثق حينما يدعكه مرزوق.

نهضنا حالما أنهينا الساندويتشات الخفيفة والعصير، ثم قصدنا الفصول، حرصت على أن أختبئ بغطاء الفوضى حتى أخرج من باب الكافتيريا.

أثناء الطريق ألمَّ ألمٌ ببطني مرة أخرى، فتركتهم قبل باب الفصل وانحرفتُ يميناً إلى الحمام، طرأتْ عليَّ بشكل غير جاد فكرة الاختباء داخله حتى تنتهي الفرصة، استهزلتها وأنا أفتح الباب، فهبَّتْ عليَّ رائحة الحمامات العامة المهملة الكريهة، وظهرت المغاسل قذرة ولم تستعمل قط، وفوقها مرايا متسخة لم يمسح عنها الغبار، وتدافع ذلك الصوت المزعج لقطرات المياه المتسربة من الحنفيات في أذني، وكانت رائحة المجاري كثيفة وتكتم الأنفاس، تركتُ فكرة استعمال هذا الحمام، لعلّي أجد في أجنحة الصفوف الأخرى واحداً يصلح للاستعمال؛ لما أردت الخروج، سمعت همساً أثار فضولي من أحد الحمامات، تقدمت بضع خطوات لأستكشفه، فأمسكتُ بأنفي خيطَ رائحة سجائر، تبعتُه حتى تكثف

وأصبح نسيجاً يلف الهواء، فُتح أحد أبواب الحمامات وخرج منه فتى عرفته من عرجه، إنه فهد العرج، تسمّر في مكانه لما رآني، فاتسعت حدقتاه وضغط على حواجبه غيظاً، تجمّدتُ مصعوقاً لرؤيته، (هذا أيضاً في مدرستنا) تذمّرت في نفسي.

لدغني بنظرة ثعبانية، ثم نادى من ورائه الشيطان:

- هيّا تعال، وانظر من جاءنا هنا برجليه.

خرج مرزوق العبد من الحمام الآخر وهو يتفقد جيوب بنطاله، توقف مكانه، نظر إليّ بسخط، ثم صرخ بصوت مكتوم:

- لا تهرب.

وكنت قد تحفزت للهرب، فتراجعتُ أرتجف إلى الوراء.

كصبي صغير لم يكن الانهزام يعني لي شيئاً مقابل الشعور بالألم، بكيتُ ورجوتُه أن يتركني، لكنه تقدّم وأمسكني من ياقة قميصي، ودفعني حتى ألصقني بالجدار. كان وجهه الغاضب يجسّد منظر الهلاك، أشار عليه العرج بعدما أشعل سيجارة:

- ما رأيك أن نفعل به؟

انهرتُ.. رجوتُه.. توسلت إليه، فطلب مني ألا أصدر صوتاً، ثم أمر العرج بأن يقف عند الباب للمراقبة.

قال صوت متشائم في داخلي: (استسلم فقد انتهى الأمر). خانتني غريزتي، لم تمسك زمامي بتلك القوى الرهيبة وتخلصني من المأزق. مرت ثوانٍ حتى وصل العرج إلى الباب، لكنها كانت وقتاً طويلاً في زمني الخاص، وقبل أن يمسك المقبض، فتحه حميد.

* * *

رأيتُ وجهه على نحو شفاف، لم أسأل نفسي كيف استطاع أن يجدني، لأن عقلي وقتها لا يرغب في الدخول بالتفاصيل، ها هي فرصة ضعيفة للنجاة.

لما رآني حميد أبكي ويد مرزوق تلتفّ حول رقبتي، علم مدى خطورة الأمر، قال له العرج وهو ينفخ عليه دخان سيجارته:

- تعالَ هنا يا حبيب قلبي.

أقصى ما كنت أتمناه هو أن يفرّ حميد ويخبر أحد المدرسين بما يجري قبل أن يكسر مرزوق اعتدادي بنفسي. بدلاً من ذلك وقف حميد يتفحص المكان، كأنه يقيس أبعاده ويستكشف محتواه؛ فقال يخاطب مرزوق بصوت كان أكبر من صوت بالغ:

- أفلتْهُ قبل أن أجعلك تندم.

هذه ليست نبرة حميد، لم أعتد منه في اليومين الماضيين هذا الكلام الصلب الصارم الذي يخرج عادة من القادة القادرين على إمضاء كلمتهم ولو على جثث الناس.

قلت في نفسي: (ليس هذا وقت الثقة يا حميد، اهرب فقط وأخبر أقرب من تجده). التفّ فهد العرج ببطء حتى وقف عند الباب، وقال بثقة يخاطب مرزوق:

- واحد لك وواحد لي.

فقفز قفزة لا تستطيعها رجله القصيرة، كانت قفزة طويلة وكافية لتصل به إلى المرحاض، ولم تأت من قدرته على القفز، بل من حميد الذي التقط يده في الهواء وأدارها بقوة ليقذفه بعيداً بالاتجاه الآخر.

تركني مرزوق واتجه إلى حميد، حاولت الهرب فوجدت العرج يقف أمامي مبللاً بالأوساخ، تراجعت إلى الوراء تاركاً لهما حميد وحده.

- سأريك يا ابن القحبة.

توعّد مرزوق، فردّ حميد:

- أرني كل ما عندك.

كان فارق الجسد كبيراً بينهما، سدد مرزوق لكمة فتحاشاها حميد بلياقة مرنة ليوجه من ناحيته لكمة أصابت حنك مرزوق وجعلته يتعثر إلى الوراء، زمجر العبد فرمى جثته بكامل بطشها على حميد، فالتحما يجرّ أحدهما الآخر إلى الأرض، سألت نفسي من أين لحميد فتى المنزل المثالي كل هذه القوة، وكم من الوقت سيصمد؟ كان المشهد مثيراً وحماسياً، خصوصاً وأنا أرى وجه مرزوق تأخذ فيه الخشية مكان الغضب؛ يرتفع حاجبه الأيمن، وينكمش جفناه، وتتمايل رقبته يميناً وشمالاً في محاولات بدأت للنيل وانتهت للخلاص.

سقط مرزوق العبد أرضاً في النهاية، الشرس صاحب السمعة المرعبة، وثبت حميد صدره على الأرض ثم جعل ينزل عليه اللكمات.

- سأفعل بك.

يردد مرزوق هذه الجملة اليائسة، ويرد حميد برشقه مزيداً من اللكمات. تحرك العرج فانتبهت، بعدما غيبني انبهاري بحميد عن

وجوده، تشجعت فانقضضت عليه وطرحته بسهولة، وجعلت أركل بكل قوتي وجهه المليء بآثار الخدوش إلى أن سال الدم من شفتيه.

شعرت بالانتشاء، وبأنني عدت مرة أخرى لسابق ثقتي، فزدت له الركلات بعنف. استمر مرزوق يتوعد وهو يتلقى اللكمات، لم يتقبل الهزيمة، حاول أن يفعل أي شيء حتى لو كان رمزياً، لكنه لم يستطع غير إطلاق الوعود المهددة. انتابتني حالة جنون، تركت العرج طريحاً وتوجهت إلى مرزوق وهو ملقى تحت حميد لأستعيد غروري وكبريائي الذي جردني منهما خوفي منه. لما رأيت وجهه منكسراً ذليلاً، بصقت عليه، ثم رفسته، ترك حذائي على وجهه أثر بلل أرضيات الحمامات.

وجّهت له ركلة أخرى، حمّلتها بكل مضاعفات عذابي منه طيلة أسبوع، فأجهش، وترك المقاومة مستسلماً. هرب العرج وترك باب الحمام مفتوحاً، كنت أريد أن أركل مرزوق ركلة ثالثة، فمنعني حميد آمراً:

- توقف.

امتثلت له بانقياد تام، بعدما رأيت منه كل هذه الشجاعة والقوة، وبعدما أنقذني من فكّي مرزوق، ودمَّره أمامي، ولقنّني درساً بهشاشة الأساطير التي تُصنع من الخوف. لم ينهض مرزوق عندما تركناه، ظل طريحاً يبكي على أرضية الحمام المبللة.

كانت بالنسبة إلي لحظة تشبه إلى حدٍّ مطابق لحظة قتلي الكلب فوق سطحنا، بكل مشاعرها وتخيلاتها وظلالها التي تركتها في

نفسي، عدوّي ذليل تحت قدمي، الحرامي ممزق الكرامة، مهان مثل كلب ضال.

شممت هواء نقياً حينما خرجت من الحمام، كأنني استبدلت رئتي بأخرى جديدة، شعرت بتحسن سريع في بطني، وبدت المدرسة مكاناً جديداً ورائعاً.

- شكراً حميد.

كانت تلك أول مرة في حياتي أشكر بها أحداً.

خرج حميد من الحمام بشكل آخر، تغيّر فجأة من ابن المنازل إلى سيد الشوارع في عيني، بل الشوارع وكل مكان، لمح الفضول في عيني فقال:

- أبي مدرب «قتال متلاحم» في الجيش.

ابتسم وربّت على كتفي، وأكمل:

- هل رأيت.. هزمتَ مرزوق عندما هزمتَ خوفك منه.

ورحنا نمضي سوياً إلى الفصل.

صادف وصولنا رنين جرس انتهاء الفرصة، أمامنا خمس دقائق حتى جرس بداية الحصة الثالثة، كان المكان في فوضى ما بين الحصص، نهض إلينا ناصر وحيدر يتساءلان أين كنا؟ رأيت ممدوح واقفاً يتحدث مع طالب صغير بعصبية وتكبر، فانتابني مقتٌ شديد ورغبة في إيلامه، تركت تساؤلهما وتوجهت إليه، وعندما اقتربت منه رفع عينيه بحاجبيهما الكثّين وقال:

- سيأتي مرزوق في الحصة الأخير...

أخرسته بلكمة خرجت من صدري إلى خده مباشرة، غمرته رعشة الدهشة المفاجئة، كأنه رأى في عيني ما فعلته بمرزوق، فأمسكت بشعره وجررتُ رأسه إلى الأسفل، فتدخل حميد وباعد بيني وبينه، سحبت حقيبته ورميتها خلف الباب، مبعثراً دفاتره على الأرض، فرمقني بحقد وراح يلملمها، وعدت بحقيبتي إلى مكاني الصحيح ومكانتي الحقيقية، وقبل أن أجلس، استدرت إلى أبناء صفي، ومررت عليهم كلهم بعيني متحدياً ومتفاخراً.. لست أنا الذي ينظرون إليه بشفقة بعد الآن.

* * *

ظننت أن المسألة قد انتهت، وأن شرّ مرزوق قد دحر للأبد، بيد أننا لمّا رن جرس الخروج، وجدناه هو والعرج ينتظران عند باب المدرسة الخارجي، وفي يده معدن برّاق، وكان الشرّ في عينه أحمر متأججاً يشبه جمرة يُنفخ عليها. دفعني ممدوح من خلفي بعنف، فتعثرت وسقطت ثم ركلني على بطني فأبعده ناصر عني برفسة إلى مؤخرته، نهضت فاشتبكت معه أنا وناصر، وكنت في الوقت نفسه أبحث عن حميد، فوجدته يشق طريقه نحو مرزوق بسرعة وإصرار. تساءلت: كيف يكون كل هذا المراس من حميد؟

التمّ الطلاب عند الباب على الشجار كما يفعلون دائماً، غابت قامة حميد بينهم، بقيت أنا وناصر نتعاون على إخماد ممدوح حتى هرب أخيراً، وركضنا وراءه إلى الباب.

كان قلبي يحدثني أن حميد صرع مرزوق مرة أخرى، لكن حين وصلت رأيت مرزوق واقفاً وبجانبه يقف حميد، (ما الذي يحدث؟)

تساءلت. عندما تقدمت قليلاً رأيت رجلاً في زي الجيش يقف أمامهما ويحدثهما. قلت لناصر:

- هذا جارنا شاكر أبو حميد.

لما رآني حميد ناداني، فاقتربت حتى وقفت بجانب مرزوق، واستطعت أن ألحظ التغيّر الذي طرأ على وجهه، وراح أبو حميد يقول:

- أنتم إخوة، وينبغي لكم أن تكونوا معاً وتنبذوا المشكلات وراءكم، فلا داعي لكل هذه السخافات.. ها.. لكمات وصفعات وأذى، ثم يذهب كل واحد إلى أهله محملاً بالجراح، انتبهوا للدراسة فقط، ليكن همكم الوحيد هو النجاح، فالمستقبل ينتظركم.

وزاد مخاطباً حميد:

- عليك أن تعتذر من أخيك أولاً.

امتثل حميد لطلب أبيه بلا تردد، ومدّ يده قائلاً:

- أنا آسف.

لم يحرك مرزوق يده، ولم يعِد حميد يده بعد، فقال والده بصوت حنون، في حين كانت يده تمسح على رأس مرزوق:

- لماذا لا تصافح أخاك يا بني؟

هنا تحول مرزوق إلى شخص آخر، لم يصمد أمام سيل الحنو الذي غمره به أبو حميد، فتراجع إلى الوراء، وكانت عيناه تبرقان وتوشكان على الانهمار، لم يعطنا فرصة لنراه يبكي، استدار وركض بعيداً، ركض حتى حالت السيارات دون رؤيته، في حين جاهدت

نفسي بلا جدوى على أن أدفن بداخلها شعوراً متعاطفاً معه اعتراها. قبل ساعات كان مصدر ذعري، والآن يصبح محل تعاطفي. شعرت بغضب ينمو في داخلي على كل شيء.

3

انتهى شر مرزوق منذ ذلك اليوم، وانتهى معه اضطراب معدتي وتوتر ليلي، رأيته بعدها بيومين، وكان يتعمد إخفائي عن نظره برمي عينه إلى الجهة الأخرى من الممر، لم تعد ملامحه بشعة، تغير شيء ما في تفاصيل وجهه، لم أتبين ما هو بالضبط، بدا كأنه متسول يستعدُّ لإغراق وجهه بموجة من الأسى.

وفي الفصل عقدنا اتفاق سلام ضمنياً مع ممدوح مكوناً من بند واحد: لا كلام بيننا.

استعدتُ حريتي بعدما تخلصت من ربقة الشيطان: الخوف. واحتواني عالم أخضر، وشعرت بالاستقلالية، وإن كان هذا ليس على يدي، بل على يد حميد، فهو لا يعني أنه لم يكن لي دور ثانوي في الخلاص، وهذا الدور من الممكن أن ينمو مع القليل من أحلام اليقظة، من الممكن أن أغذِّيه شعورياً وأوسِّع أبعاده بمحاولاتي أن أكون شبيهاً بحميد شاكر، البطل الذي كبر في عيني كثيراً، حتى فاق قدرتي على الإعجاب، وأعجزني عن مجاراة بطولته.

صحيح أنَّ ما حدث لم يغيِّر طريقة تعامله معي، حيث لم يمنّ عليّ، ولم يظهر لي في سلوكه ما يدل على أنه رأى ضعفي أو أنه أنقذني من موقف مهوْل كدتُ أفقد فيه اعتدادي، لكنني مع ذلك

قمت أشعر بمسمار ينغرس في جمجمتي كلما طرأ حضوره على وجودي، شعرت بعذاب يصدر من كبريائي ومن أسلوب حميد النبيل بتناسي ما حصل، وجدته يستعبدني بدلاً من أن يمنحني إحساساً بالانعتاق.

* * *

مرَّ أول شهر هادئاً رتيباً، شغلني فيه شيء واحد فقط، شيء سحري خلاب وامضٌ، وهو محاولة امتلاك عيون صفاء، التي بدأت تتردد على بيتنا كل عصر تقريباً لتراجع مع أمي درس اللغة العربية، وكانت تمنحني خلالها بعضاً من نظراتها المشعة والعابثة من غير عمد، نظرات تحمل لذّة شقاوة طفلة مكبلة.

لا أنسى ذلك الموقف عندما كلَّمتها أول مرة؛ كانت تشدّ دفترها وكتابها ومحفظة أقلامها على صدرها، وتمشي الهوينى باتجاه بيتنا، ترتدي الفستان الأبيض الجذاب ذاته، وكان وجهها الصغير يمسك بتعبير شهي أعجز عن وصفه، شعرت بالاختناق يطبق على رئتي، فبحثتُ عن نفحة هواء أسند إليها صدري لأتمكن من المرور بجانبها بلا ترنّح. تواجهنا بمسافة قريبة، قريبة جداً لدرجة خيالية، يا للصدفة المجنونة.. أنا أريد الخروج وهي تريد الدخول، مرَّت بجانبي مثل أشعة الشمس حينما تتسرب من ثقب سحابة، وبشجاعة كبيرة جابهتُ رهبتي وشددت على أعصابي فتطلعت في عينيها مباشرة، كانت الكلمات تهرب من رأسي، استطعت أن أمسك منها القدر الذي يكفي لصياغة سؤال بارد عن اسمها، ارتخت شفتها السفلى ومالت بشكل جاذب، وأجابت:

- صفاء.

كدتُ أذوب من نعومة طبقة صوتها، شعرت بطعم فراولة ينساب في حلقي، امتلأ قلبي بالكهرباء.. أضاء وطافت في داخله أناشيد زاخرة بمعانٍ مقدسة.

دخلت وراحت تمشي على استحياء إلى الصالة، تجاوزت الحوش، كأن الغيمة التي سمحت لها بالمرور تتفكك على أثر خطواتها الآن، أينعت شهوة الغريزة على شفتي؛ تنفست بجموح، وقلت أقطف نضج اسمها في لساني:

- صفاء؟

- نعم.

أجابت، ثم استدارت وهي تحتضن دفاترها وعلى محياها ابتسامة صافية.

- هل حميد في المنزل؟

- نعم، تركته يذاكر في غرفته.. هل تريدني أن أناديه لك؟

- نعم.. أقصد لا.. لا.

أربكتني طبيعة كلمة «تريدني» التي تعني في دلالتها أنها تحت أمري، استدركتُ:

- سألتقيه غداً في المدرسة.

لم أستطع منع نفسي من التفكير بها فترة ما قبل النوم المزدحمة عادة بخواطر غريبة، أغمضت عيني وتخيلتها ترقد بجانبي، بعيداً عن جوع الجسد وإلحاح إشباعه، تمسح على شعري.. ترتب دفاتري في

حقيبتي.. توقظني إلى المدرسة.. تحضِّر لي طعام الإفطار.. نأكل سوياً.. أقود سيارة أبيها البيضاء وهي تبتسم بجانبي وشرائط ضفائرها الحمراء مربوطة على شكل وردة، ورائحتها تسترخي على صدري. تملكتني تدريجياً.. استولت على ذهني.. انصبّت في داخلي حتى ملأتني.

رحت أرسم على آخر صفحات الدفاتر قلوب حبّ مفعمة بالأمل، وأغرس في داخلها سهاماً مرتعشة على أطرافها حرفَي اسمَينا، كتعبير رمزي عن اختراق الوجدان بشعور جديد فتح في قلبي عوالم مغلقة، شعرت كأنني أعرفها منذ ألف عام، بل كنت متأكداً من أننا كنا في حياة أخرى عشاقاً، شعور غريب لصبيٍّ لا يعرف عن فلسفات الأمم أي معنى.. بل الإنسان أكثر غرابة من هذا الشعور، كأن العالم، بمعارفه الكبرى، بأسراره المحيرة، وبفلسفاته المتوالدة، مخزّن في داخله منذ خلق.

كان شعوراً عجائبياً، قلت لقلبي المبتدئ عنه حينها: ربما هذا هو الحب.

من أين يتعلم الإنسان الحب، لا البيت ولا المدرسة ولا المجتمع يعلمنا ما الحب وكيف أعراضه وما قواعده وأساليبه، كيف أعرف أنني أحب، وهل حبّ الصغار مثل حب الكبار أم يقلّ عنه درجة أم أنه أعلى منه بمراحل؟ أمر محيِّر أن يهيَّأ لتطوير العقل جيشٌ هائل من المدارس والجامعات والمواد والنظريات والعلوم، ولا يوجد مادة واحدة تهتم بالمشاعر وتعلِّمنا الحب.

بقدر ما أقلقني ذلك الشعور المجهول، بقدر ما شعرت به دافئاً

وهو يتسرب إلى دمائي، لم تكن تجاربي القليلة تؤهّلني لاستيعابه، وبالتالي العمل على مقتضى فهمي لتبعاته، تركته يسري في أعماقي، باستسلام وترقب.

* * *

استمر أسلوب حميد في تعذيبي، حتى ضقت منه طوال الشهر الثاني، إذ لم يتطرق للحادثة، ولم يستعرض بطولته أمام أحد، لم يتباهَ كما يميل أغلب الصبية، ومع الوقت أصبحت أرى هذا التصرف منه ينطوي على نوع من العطف المهين. تراكم هذا الشعور الضاغط عليّ حتى وجدت نفسي أصدّه بشيء من الجفاء، وأحرص على ألا أضع عيني بعينه. كانت نظراته الخالية من الازدراء تخترقني، وتجعلني أشعر بعُريي أمامه كلّ مرة.

(تباً لك حميد) أكرِّرها في نفسي كلما رأيته يبتسم لي.

جعلني ذاك الإنقاذ منقاداً له بطريقة مذلّة، على أنني بذلت مجهوداً مضنياً في داخلي لمقاومته، وكنت أخفق دائماً، فأفسح له الطريق ليمرّ قبلي، وأمرِّر له الكرة، متظاهراً بعدم القصد، رغم أنه خصمي في المباراة؛ وجدتني أستمع بانتباه بالغ لأحاديثه مهما كانت مملة، وفي نهايتها أصطنع التأثر. شعرت بإحساس وضيع في كل هذا، لم يكن يريد مني ردّ الجميل، وفي الوقت ذاته كان يغمرني باهتمامه في سير مذاكرتي على الخط الصحيح، بل كان يعطيني دروساً في بيتهم، حتى بتُّ أشعر بنقص الأكسجين في وجوده، ليس نكراناً للجميل، لكن ارتباكي عند استعادة الأحداث بات يشعرني بالانسحاق، حتى حديثي معه أصبح مربكاً، ويخرج من حلقي بنبرة

خاضعة، وشيئاً فشيئاً قمت أبتعد عنه تدريجياً، لأنني كنت أفقد على نحو متزايد استقلاليتي، وأفقد معها ذاتي.

وعندما لاحظ الرفاق تملّصي منه، اختلقت لتساؤلهم عذراً تقبّلوه بسرعة كأنهم في انتظاره؛ فسَّرت لهم ابتعادي عنه بأن حميد طالب مجتهد، وينبغي لنا أن نبتعد قليلاً عنه، وألا نَشغله عن تفوّقه، وهكذا انسحب عنه البقية، وغيّرنا مكان جلوسنا إلى زقاق السيارة المتهالكة، فأصبح وحيداً كل عصر يركل الكرة في الساحة.

حتى في المدرسة، لم نكن نماشيه كثيراً، فقط في الفصل، أما في الفرصة فكنا نفترق عند شبّاك الكافتيريا، ونلتقي في مكان آخر بعيداً عنه. شعر بتعمّد ابتعادنا عنه، واستسلم أخيراً لفكرة أننا لا نرغب في صحبته.

* * *

نادتني أمي في أحد الأيام، وجدتها تكلم حميد في الحوش، حيّاني، فلم أرد، شعرتْ أمي أنّ هناك خلافاً بيني وبينه، فحاولتْ تلطيف الجو بيننا بدعوته ليجلس معنا. طوال تلك الجلسة كنت أتلظى بنار حارقة، ولا أشاركهما في الحديث، تحدثا عن المدرسة، وعن طريقة شرح المدرّسين، راح حميد يتكلم كعادته مثل طلاب الجامعات عن المناهج المدرسية وماذا ينقصها لتكتمل، ولا بد أنه كلام حفظه عن والده، ولم ينس أن يمتدحني أمامها، ويثني على مشاركاتي في الفصل. سألته أمي عن برنامجه في المذاكرة، وأخبرها بأن والده يقوم بتدريسه في البيت يومياً قبل النوم، فسألتْهُ هل أكمل والده الثانوية، فأجاب مزهواً بأن والده حاصل على بكالوريوس

فلسفة من جامعة الكويت. استفسرت أمي متعجبة:

- بكالوريوس!! كيف؟ يفترض أن يكون ضابطاً، أليست رتبته العسكرية جندياً أول؟

أجاب بصوت موهون:

- نعم، ذلك لأننا..

خفض صوته فجأة داخل شفتيه الهامستين، وأكمل:

- «بدون»، لكن هذا الوضع لن يستمر، ستتحسن الظروف وسنأخذ الجنسية في أقرب وقت، هكذا يقول أبي.

كانت هذه أول مرة أسمع كلمة «بدون»، لم أعرف معناها، لكنها خرجت منه مقيدة بسلاسل ثقيلة، تبدّل وجهه مع إيقاعها، ورأيت لأول مرة ثقته تتخلخل. أعطتني حالته نبذة عن معنى كلمة «بدون» تلك.

انطبع خروجها مع تغيّر وجهه بهذا الشكل الحزين والمستسلم في لاشعوري إلى هذا اليوم الذي أقعد فيه على كرسي العجز هذا.

كلما سمعت كلمة «بدون» تحضر مشاعر الأسى من أعماقي، المشاعر التي صنعها قلبي لشكل حميد شاكر المكسور ذاك اليوم.

تركتهما وذهبت إلى غرفتي.

* * *

لم تتقبل أمي سلوكي مع حميد، ووصفته بعد انصرافه بالمشين، ثم فسرتْه بأنه من دافع الغيرة، وذلك لأنني أرى حميد أفضل مني.

سألتُها:

- ماذا يعني حميد بأنهم «بدون»؟

أخذتْ نفسَاً عميقاً وزفرته مرة واحدة، وقالت:

- يعني أنهم لا يملكون جنسية.

- وما الجنسية؟

- شهادة بأنك تنتمي إلى وطن معين.

حككتُ رأسي، وسألت:

- وهل نحن نملك شهادة؟

- نعم لدينا جنسية كويتية.

- ولكن حميد كويتي مثلنا.

- الأمر معقّد عليك.

- هل يستطيع أن يصبح ضابطاً في الجيش؟

نظرتْ إلى الساعة وهي تجيبني:

- لا أعلم.. اذهب الآن واعتذر منه عن تصرفك الرديء معه.

وبعد تعليمات سريعة، أمرتني أن أذهب إليه حالاً وأدعوه لندرس معاً.

كان الشتاء يرسل أول أنفاسه الباردة علينا، نقلت رجلي بصعوبة في المسافة القصيرة إلى بيتهم، لم أفهم ماذا يعني أن حميد ليس كويتياً، كانت مسألة الانتماء عندي مرتبطة بالفئة التي ننتمي إليها: فريق، صف، مدرسة، شارع، أما في معناها السياسي الساذج فلم تكن أمراً يمكنني فهمه وقتئذٍ، هي مسألة تصنيف لا يستدعي التمييز.

إنه يحيي العلم معنا كل صباح، ويهتف بصوت أعلى منا: تحيا

الكويت.. عاش الأمير.. تحيا الأمة العربية، لا بد أنني لم أفهم، وأحتاج إلى شرح.

وجدت شاكر أبا حميد عائداً من طريق المسجد، سلّمت عليه، اتجه صوبي واستقبلني بابتسامة مرحِّبة:

- أهلاً سلمان.

مدّ يده ليصافحني وأكمل:

- كيف حالك أيها النشيط؟

صافحته فغاصت يدي في يده:

- بخير.

أجبته وأنا أنظر إلى طريقة تحديد لحيته.

سألني:

- أخبرني كيف تسير الأمور في المدرسة، هل درجاتك متقدمة؟

ابتسمت ببَلَهٍ وقلت:

- لا أعرف.

رفع رأسه إلى السماء ينظر إلى حمام أبي، وأداره على سور سطحنا، ثم أعاد بصره عليّ وسألني:

- حسناً.. قل لي يا شاطر: من يصعد إلى سطح بيتكم كل يوم؟

- إنه أبي يربّي الحمام، ويبقى هناك طويلاً.

ضغط على حاجبيه وهز رأسه علامة على انزعاجه.

لا بد أن نباح الكلب أزعجهم، أو قد يكون أبي شتمه أو بصق عليه من فوق.

غيّر الموضوع قائلاً:

- عموماً.. حميد يقول إنه سيكون الأول على الفصل، لكن بوجود ولد ذكي مثلك لا أظن أنه سيستطيع.. أليس كذلك؟

أسلوبه إيجابي ومحرج، لا غرابة أن حميد لا ينفك يختم جمله بـ«هكذا أخبرني أبي». قلت بغباء:

- حميد أشطر مَن في الصف.

مسح على رأسي وقال:

- أها.. وكيف تكون أشطر منه؟

رفعت كتفي وأملتُ رأسي بالحركة العالمية لـ«لا أدري».

فأجاب عني:

- بالمذاكرة طبعاً، وبالحفظ.. هل تريدني أن أشرح شيئاً لم تفهمه؟

كدت أطلب منه شرح كلمة «بدون»، لكنني غيّرت رأيي لأن الحديث معه صعب ومرهق لأسلوبه في مخاطبتي كأنني ولد بالغ:

- لا، أمي تقوم بذلك.

أعاد رفع بصره إلى السطح مرة أخرى ثم خفضه صوبي، ابتسم ثم تمنّى لي النجاح والبركة، ونادى حميد.

كاد الفرح ينطق على وجه حميد عندما رآني أقف مع والده أمام باب بيتهم، لم يُخْف فرحه، لم يتظاهر بالانشغال كما كنت سأفعل لو أنني في مكانه، حيّاني ورددت عليه التحية بأقل منها، ثم ذهبنا إلى بيتنا، ابتسمت أمي لمّا رأتنا معاً، أحضرتْ لنا بعض الكعك والعصير، فتحتُ كتابي لأريها أنني جاد في المذاكرة، ساعدني حميد لأبدو أمامها أذكى منه، تجاهل الأسئلة التي وجَّهتْها لنا، ليتركَها لي عن قصد.

كيف أتعامل معه، أصبح يمتلكني، وبتُّ أضيق من هذه العبودية.

عندما انتهينا من المذاكرة، خرجنا إلى الساحة وهو يحمل الكرة، لعبت معه على ما تبقى من أشعة الشمس التي صبغت الأفق باللون البرتقالي، تبادلنا الأدوار في ضربات الجزاء، أكون أنا الرامي وهو الحارس، ثُمّ العكس، لعبة تسبّب الملل. شعر من فتوري بأنني أحمل نفسي على اللعب معه بصعوبة، ومع هذا استمرَّ يسدِّد الكرة لي بشكل يسهل عليّ صدها، ويسمح لي بتسجيل أهداف على مرماه.

عادت حالة الكون السرمدية للظهور، العصافير تزقزق، الظل يتلاشى، والقمر يطل على استحياء من السماء، والشمس تختفي تدريجياً، قال حميد:

- حسناً.. يجب أن نعود.

لم أنطق بشيء، مشيت عائداً إلى البيت، كأنني أنتظره يطلب العودة، تركته يلتقط الكرة ويعود وحده.

لا أشك أنه توقف قليلاً ينظر إليّ وأنا أبتعد، لعله شعر بأن هناك خطأ حدث في صداقتنا، قد يكون فسّر ابتعادي بأنه ناجم عن فهمي الخاطئ لإحدى تصرفاته. ناداني:

- سلمان!

توقفتُ والتفتُّ ورائي، كنت لم أتجاوز بعد حدود الساحة، قلت بصوت حازم:

- نعم.

عرفت أنه سيسألني عن سبب جفائي له، لم أستعِدّ لهذا الموقف.

أسرع الخطى حتى وقف بجانبي وواصلنا المشي معاً:

- هل أنت متضايق مني؟

- ماذا؟

- هل فعلتُ ما يزعجك؟

- لا.. لماذا تسأل؟

- إذاً لماذا تتحاشاني طيلة الأسبوعين الماضيين، ولماذا ناصر وحيدر والبقية لم يعودوا يلعبون في الساحة؟ هل أخطأت في حق أحد؟ هل آذيتكم؟ أم أنكم تريدون قتل الكلاب ووجودي يمنعكم؟

- أوو حميد.. لم نعد إلى قتل الكلاب منذ ذلك اليوم.

- فما الذي حدث؟ أخبرني بكل صراحة.. لا تخفِ شيئاً عني.

- لم يحدث شيء، كل ما في الأمر هو أننا لا نرغب في إشغالك عن مذاكرتك.. لأنك طالب مجتهد.

شعرت بالبله عند «لأنك طالب مجتهد».

وجّه نظره إلى الأرض، وقال وهو يدحرج الكرة برجله:

- هل هذا عذر، أو تعذّر؟

لم أعرف كيف أرد، كنت أشعر بأنني في حالة حرجة، وعليَّ أن أضبط كل حركاتي معه، فقلت له:

- حسناً سأخبرهم غداً بأن يعودوا إلى الساحة.

ابتسم تلك الابتسامة التي يحاول أحدنا أن ينقذ بها كرامته، وقال:

- أنا لا أطلب الشفقة.

ركل الكرة ركلة أبعدَتْها عنا مسافة بعيدة، وركض وراءها حتى أدركها فأعاد ركلها، ثم رأيته يركلها مرة أخرى من بعيد، حتى وصل بيته.

رأيت كم كنت متكبراً، وكم كان أسلوبي قاسياً في تعاملي معه. أأكون ابتعدت عنه بدافع الغيرة، كما تقول أمي، لأنني لم أطق تفوّقه علي؟ أم أن الموضوع برمّتِهِ محض مزاج صبياني سريع التغير؟

تذكرت لعبي مع أبناء خالي وخالاتي في حوش جدي، تذكرت كيف كنت أؤذيهم بتصرفاتي الرعناء، وأعود إلى الندم، حينما لا يوجد مجال للعودة، ولا ينفع الندم على ما فعلته.

قلت لنفسي لم يذكر حميد حادثة الحمَّام في استفساراته، لم يقل «ألأنني أنقذتك من رغبة مرزوق؟»، هل هذا يعني أنه صديق حقيقي.. تفهَّم عجزي، وقبلني على ما رآه مني. كيف رأيته استعلاء داخلياً منه؟

تباً.. لماذا اسودّت الأرض في عيني، وأصبح شارعنا مهجوراً فجأة، وتلك القشعريرة التي تجمّد الظهر تجعل خطاي بطيئة طوال الطريق، كنت أرغب بأن أصرخ به عالياً، وأقول: حميد اعذرني لأنني رأيت أن جميلك ينبغي ألا يفعله معي شخص مثلك.. شخص تافه، لو فعله أحد غيرك لتقبلّته، أما أنت.. أما أنت حميد فيجب ألا تكون أفضل مني، أتعلم لماذا؟ هاه.. لأنك «بدون» لست كويتياً، بل ليس لك وطن، لن تكون أفضل مني مهما فعلت، هل تسمع؟ مهما فعلت.

دخلتُ البيت، فلما رأت أمي عيوني الدامعة قفزت من مكانها في الصالة، ووضعت وجهي بين يديها، وتطلعت إلى عينيّ المُحْمَرَّتين المغرورقتين، ثم ضمتني إلى صدرها، وأغرقتني بفيض حنان كنت في أمسّ الحاجة إليه لأكمل ندمي، سألتني:

- ماذا بك، لماذا تبكي، هل تشاجرت مع حميد؟

أجبت وأنا أنشج:

- ل.. لا.. ش.. شيء.

أخذتني إلى حمّام بارد. اغتسلتُ وارتعش جلدي فاستعدت شيئاً من قبولي للواقع كما هو. صحبتْني معها إلى السوبر ماركت، تسوقنا حاجيات البيت، واشترت لي قدراً فوق الذي تسمح لي عادة بشرائه من الكاكاو.

* * *

كان وجه حميد يحاصرني في غرفتي قبل النوم، ينظر إليّ بحزن

وتأسف، ويطل من عينيه كمد أليم. رغبت أن أطيل تلك الليلة، إذ شعرت بتحسن وأنا أتأمله بصمت مؤنّباً نفسي على أنانيتي معه، وهذا بمنتهى الصدق والوضوح. بعثت الذاكرة أحداث الفترة السابقة من علاقتي التي لا تتجاوز الشهرين معه، وهي ليست بشهرين إذا حسبناها على نسبة سنّي قياساً مع حجم الأيام فيه.

شعرت بخجل وخزي عسيرين؛ وفي الوقت نفسه كان تيار التفكير في أخته صفاء يحاول جرفي بعيداً، حيث كل شيء يبدو جميلاً ومتسامحاً، وتبدَّدت تلك الليلة سريعاً ما إن استسلمت لطبيعتي الضعيفة أمام حاجة النوم.

حلمت على نحو متداخل بأن حميد هو صفاء، وبأن صفاء هي حميد، اندمجا معاً اندماجاً جسدياً، كالذي كان يحدث في مسلسلات الرسوم المتحركة، وأصبحا في شكل آخر.. شكل يشبههما معاً، ولا يشبه أحدهما وحده، وكان عليَّ أن أندمج، أنا الآخر، معهما جسدياً، لنصبح شخصاً كاملاً، وأثناء محاولتي أيقظتني أمي إلى المدرسة.

* * *

لم يلوح لي حميد يده في الهواء صباحاً كما يفعل كلّ يوم، لم يبتسم لي كعادته عندما نتواجه عند باب المدرسة، حتى إنه لم ينظر باتجاهي طوال الحصة الأولى والثانية. كانت علامات عدم الارتياح بادية على وجهه المتّجه كالعادة إلى السبورة. أشعرني بأنني لست موجوداً في الفصل، بل في عالم آخر بعيد أراه فيه من غير أن يراني. بدا لي في هذا الشعور من الانعزال ما يفوق اعترافي لنفسي بأنني

وحيد وأودّ أن أزفر أنفاسي الأخيرة من الندم، ثم أعود بشهيق مفعم جديد. لم تكن الحصتان في نظري غير حركات من يدَي المدرس تتردد على السبورة وترسم عليها خطوطاً لم أنتبه لما تشير إليه. ثمة صمت طاغٍ ينبعث من زوايا الفصل، كنت مع حميد، كل تفكيري، كل انتباهي منصبٌّ عليه، أنتظر منه حركة واحدة تدلّ على أنه يعتبرني هنا، وهذا في حدّ ذاته دليل على بداية قبوله اعتذاري، أدركت تماماً مدى خطئي معه، وهذا ما يفرض عليَّ تحمل مضاعفات الندم على مشاعري، ويضعني في مواجهة كبريائي، بأنّ عليّ التقدم بالاعتذار، وطلب الصفح.

لمّا رنّ جرس الفرصة، كنت قد عزمت على أن أخطو خطوة بالاتجاه الصحيح وأعتذر منه، لكن لما وقفت وجدته قد نهض مسرعاً وخرج إلى الكافتيريا كأنه يحاول الهرب. (هل عليّ أن أتركه لأنه اختار أن يبتعد عني؟) سألت نفسي بنبرة باطنية متكبرة، لكنني، ولا أعلم ما الدافع، وجدت نفسي أتبعه وأناديه:

- حميد.. حميد.

وقف من غير أن يستدير، جئته أمشي بسرعة حتى وقفت بجانبه، كان وجهه خالياً من أيّ دلالة تعبيرية، وموجهاً إلى الأرض، لم أره هكذا منذ عرفته، اختفت نظرة المحبة التي طالما شعّت من عينيه، وابتسامته جفّت، وها هي تتيبّس على شفتيه، كان يبدو أنه لا يرغب بصداقتي إلى الأبد.

حالما رأيته على هذا النحو الغريب سألته وأنا أبتلع ريقي الجاف:

- ماذا حميد.. هل تكرهني؟

لم يُجب، وإنما تقدَّم وتركني واقفاً أتلقى صفعات كبريائي وراءه.

ناديته مجدداً:

- حميد توقف.. اسمعني.

أدار رأسه فيما هو متجه بكامل كيانه إلى الكافتيريا، وقال بصوت قاطع:

- ابتعد عني الآن سلمان.

وقفت أنظر إليه وهو يمشي بين جموع الطلاب المتجهة إلى صالة الكافتيريا، تتبّعته بعيني حتى غاب وحده وراء الباب.

مرَّ ذلك اليوم المدرسي على صدري ببطء وبثقل، مع أنه كان يوم أربعاء ويليه عطلة نهاية الأسبوع، ومن طبيعته المرور سريعاً.

تعثر الزمن طوال فترة المدرسة، لم يألُ وجهي جهداً في صنع ابتسامتي، لكنها أتت بشكل مشوّه. لم أقوَ على النظر باتجاه حميد الذي ابتعد ابتعاداً فاق حدود المكان.

سألتني أمي ونحن في طريقنا إلى البيت:

- هل تصالحتما؟

أشحتُ بوجهي بعيداً وأجبت:

- لا.

تنفستْ بعمق وقالتْ:

- إنه ولد مؤدّب، ومتفوق، أعتقد بأن الخطأ بدر منك، فلا تعقّد الأمور، اذهب واعتذر منه اليوم، وكفاك شيطنة.

احترتُ، كيف سأقول لها إنه رفض إعطائي فرصة لأعتذر منه، هل ستصدقني إذا قلت إنه قال لي: «ابتعد عني»؟

* * *

جلسنا أنا وأمي على طاولة الطعام نتناول العشاء، وأثناء الأكل سردتْ سلسلة من الآداب والنصائح التي يجب أن يتحلى بها الأولاد تجاه الجيران، نبَّهتني إلى ضرورة المحافظة على العلاقة الجيدة مع الناس جميعاً وخصوصاً الجيران، وعلى وجوب مراعاة حقوق الجوار، ومنها حسن المعاشرة، وتقديم المساعدة، وأهمّها كفّ الأذى.

وضعتْ لي قطعة أخرى من الخبز وقرّبتْ مني صحن الجبن بالزيت، وقالت كأنها تؤنبني:

- ما حصل بينك وبين حميد اليوم في المدرسة لا يُعتبر من حسن الجوار، المشاحنة والمقاطعة ليست من شيمنا مع جيراننا، تذكَّر هذا حبيبي، لا أريدك أن تكون عدائياً مثل أبيك، كن سمحاً ودوداً مع كل الناس.

أصرّت على أن أشرب كوب حليب آخر، وقالت فيما هي تبرِّده:

- تحدثت مع أم حميد عمّا حصل بينكما، وقد استاءت ونادت حميد وأنّبته أمامي، ووعدها بأن يصالحك غداً.

سررتُ بالخبر، حتى إنها لاحظت انبساط وجهي، وأكملت:

- وطلبت مني أن أسمح لك بصحبتهم عصر غدٍ إلى حديقة الحيوان، فقلتُ سأسمح له إذا رغب.

قفزتُ فرحاً وهتفتُ:

- بالطبع أمي.. بالطبع أرغب.

* * *

في العصر، لم تتركني أمي حتى سرّحت شعري، ومسحت وجهي ورقبتي بدهن الورد الطائفي الفواح وأحكمت عليَّ معطفي. جلستُ متوتراً في الصالة أنتظر إحدى إشارتَي النداء؛ رنّة تلفون، أو دقة جرس:

- أين ستذهب؟ اجلس حتى يدعوك هُم، قد تخالفهم الظروف ويغيرون الموعد.. لا تتعجل.

- لن أطرق بابهم، أريد أن أقف أمام بابنا فحسب أمي.

- لا لا، أتريدهم أن يقولوا لم يصدِّق أننا دعوناه؟ انتظر حتى يأتوا هم ويطلبون منك صحبـ...

رنّ الجرس، فتركتُ تعليمات أمي ورحت أركض، وإذا بحميد يقف عند الباب مبتسماً، ومن ورائه تقف سيارتهم وفي داخلها أبوه يرتدي الشماغ الأحمر والعقال، وأمه متحجبة بحجاب حليبي وتنظر إليّ من وراء نظاراتها الشمسية الكبيرة، وصفاء في الخلف ترفع شعر ناصيتها بتاج.

كان وجهه صافياً وودوداً، تصافحنا، وقال:

- هيا فلنذهب.

ركبت بعده في المقعد الخلفي، وصفاء بجانبه مبتسمة بطريقة خجولة، حيّتني والدته:

- الحمد لله أنك قبلت دعوتنا، خشينا أنك سترفض، إنه كرم منك، أشكرك.

قال والده وهو ينظر إليّ من المرآة الداخلية:

- لو رفض لانتظرتُ خروجه إلى الساحة لأخطفه وآخذه معنا عُنوة.

ضحكنا جميعاً، وقاد بنا أبو حميد في الشوارع الفرعية بسلاسة. كانت قيادته تختلف عن قيادة أبي، راكدة ولا تخضخضنا على المطبات، ولا تقذف بنا على المنعطفات.

كان المسجل يدور بأغنية «عبرت الشط على مودك»، ردّدت أم حميد مطلعها مع كاظم الساهر، ثم رفعت صوت المسجل قليلاً، والتفتت علينا في الخلف وقالت:

- لماذا لا تغنون؟

- لا أحفظها.

- وأنا لا أحفظها.

- حسناً.. حميد وسلمان لا يحفظانها، لكنك يا صفاء تغنينها كل يوم فوق رأسي، هيا غنّيها الآن.

احمرّت صفاء خجلاً، فنادت أباها لينقذها:

- بابا.. انظر إلى ماما.

- لا أقدر على أمك، استنجدي بأخوك.

- وأنا لا أستطيع على أمي، استنجدي بسلمان.

احمرّ وجهي خجلاً، وسخن صدري.

قالت أم حميد:

- إذا تدخّل سلمان فسأدعها.

مدت صفاء رأسها وقالت:

- سلمان انظر إلى أمي.

واختبأت خلف أخيها بسرعة.

ازداد تعرقي، وكاد ينقطع نسمي، لا بد أنّ أم حميد استشعرت حرجي حين قالت:

- لأجل سلمان سأتركك الآن.

وأعادت وجهها إلى الأمام.

قال أبو حميد ضاحكاً:

- يبدو أننا سنستعين بسلمان كثيراً هذا اليوم.

قطع لنا أبو حميد التذاكر، واشترى لنا بعض العصائر والكاكاو والمكسرات من الباعة الذين افترشوا ممرّ الدخول، ودخلنا بوابة حديقة الحيوان في طابور يتقدمه هو وتمشي أم حميد في آخره. منحنا شهر تشرين الثاني/ نوفمبر المتسامح طقساً مثالياً للمشي، إذ كان برده منعشاً أثناء الحركة. رحنا نمشي مع زوار الحديقة في الممرات المرصوفة بالأحجار المربعة، والتي تحفها أسيجة من الحديد المصبوغ باللون الأخضر، وعلى حواف السياج تتناثر الكراسي المثبتة بالأرض، ومن ورائها تتسع الأرض المفروشة بالحشائش والتي ملأتها فرش العوائل، وشغلها جري أولادهم.

- هل أتيت هنا من قبل؟

سألتني أم حميد.

- نعم، كثيراً، مع أمي وأبناء خالي وخالاتي.

- ما الحيوان الذي تحبه سلمان؟

سألني أبو حميد بنبرة جادة.

- أنا لا أحب الحيوانات.

- لا يوجد أحد لا يحب الحيوانات، أنت فقط لا تعرف نفسك حتى الآن.

أمسك بيدي ونحن نمشي وأكمل:

- كل إنسان له شبه يجده في فصيلة معينة من الحيوان، ليس في شكله، بل في شخصيته، هل فهمت؟

- لا.

- أنا على سبيل المثال أجد نفسي أحبّ الحصان، ليس هذا الحب إلا لأنني أشبهه من الداخل، وحميد مثلاً يحب الصقور، لم يجبره أحد على هذا الحب، وإنما لأن نفسه رأت انعكاسها فيها.

- أنا أحب السناجب.

قالت صفاء وهي تضحك.

- لأنك سنجابة صغيرة تحبين أكل المكسرات.

قالت أمها وهي تضمها إليها.

انعطفنا مع الممر الذي يأخذنا إلى أقفاص الحيوانات، فقال لي أبو حميد:

- ستعرف الحيوان الذي تحبه إذا شعرت بأنك تريد أن تطيل النظر إليه، سيقودك هذا إلى معرفة نفسك أكثر.

سلكنا الممر حتى صادفنا أولاً أقفاص الطيور، مفصولة عن بعضها، كل فصيلة على حدة.

- أليس من الظلم حبس الحيوانات عن الغابة أبي؟

سأل حميد.

- لا يا عزيزي. أنت قستَها على نظام العدل عند البشر، حقوقنا تختلف عن حقوقهم، يكفي أن توفر لهم الماء والطعام حتى تكون عادلاً، أما نحن فنظام العدل لدينا معقد ومتغير، إذ لا يكفي أن توفر الطعام والماء للناس كي تقيم العدل. العدل عندنا قائم على تناقضاتنا.. بالمساواة، لأننا ننزع إلى الاستعلاء على بعضنا.. وبالمحافظة على الأمن، لأن الشرّ يدفع بعضنا ببعض، وغير هذا ممّا يطول شرحه. هل لاحظت أنّ كل فصيلة تقع في قفص واحد، وقد يكون القفص مقسماً مثل هذا؟

أشار إلى قفص البومة، وأتبع:

- لو ساوينا بين الحيوانات لأكل بعضها بعضاً، لكن لو ساوينا بين الناس لأمن بعضهم بعضاً.

لم أفهم شيئاً ممّا قاله، إذ لم يتسع عقلي بعد لحجم هذه المعاني الفلسفية.

- لكنهم في الغابة في مكان واحد مفتوح!

استغرب حميد.

- كلامك صحيح يا عزيزي، لكن لا تنسَ أن الغابة تعطي كل

نوع حريته الفطرية التي أنشأها الخالق بنظام باطني عصي على الفهم، وبهذا أعطى لكل جنس حيواني طريقته التي يصنع بها قفصه بنفسه، هل رأيت في الغابة سنجابة تأكل الطعام مع صقر؟

ومسح على رأس صفاء يداعبها.

وقفنا أمام قفص القردة وهي تتدلى من سقف القفص وترمي نفسها برشاقة على أغصان الأشجار الاصطناعية، والتي تحاكي أغصان الغابة. أخذت صفاء كيس حب شمسي ورشقته على القردة. تركناها واستمررنا نشاهد المزيد من الحيوانات.

وقفنا عند كبرياء النمر، وتأملنا ثقة الأسد، وتطلعنا على قسوة الدب، شاهدنا خساسة وجه الضبع، ومراوغة هرولة الثعلب، مررنا على إذعان البقرة، وخضوع الحمار، وصبر البعير، ورأينا رشاقة الغزال، وأعجبنا باستعراض مغرور من الطاووس، وصمت متفكِّر من البومة.

- هل لاحظتم أنَّ لكل حيوان صفة واحدة تميزه عن غيره، نحن نحمل كل صفات هذه الحيوانات، ولكن كل واحد منا يختار صفته. (قال أبو حميد)

قامت أم حميد بإطعام الزرافة غصناً اقتطعته من شجرة ياسمين، وحاولتُ بقطعة بسكويت استدراج الغزلان لألمسها، ورمت صفاء بالمكسرات على سناجبها، وأطال حميد تأمله بالصقر، وأخيراً وقفنا عند الحصان بطلب من أبي حميد.

زرنا كل الأقفاص؛ الشرس منها والأليف، حتى أدخل الليل الشمس إلى قفصها، وجعل يطوف بلونه الأسود السماء، كأن نظام

العدل هناك في السماء يختلف عنه هنا في الأرض، كأنه يقول إما الصواب وإما الخطأ، ولا مماراة فيهما.

هذه من أعظم الذكريات عندي، فردتُ لها مساحة خاصة في ذاكرتي، عطّرتها بربطها برائحة الياسمين، القريبة من أنسام صفاء.

- هل وجدت حيوانك سلمان؟

سألني أبو حميد، ونحن في طريقنا إلى البيت.

- لا.

- لعله الديناصور.

قالت صفاء وضحكت ضحكة شقيّة.

ضحكنا كلنا على نكتة صفاء.

وقلت بيني وبين نفسي: (لعل حيواني هو.. الكلب).

الحب نوع من أنواع العبادة
@alm3theb

1

عندما جاءنا عصر الجمعة، يحمل مباهجه الكبيرة لرغباتنا الصغيرة في اللعب خارج الحدود الضيقة للبيوت، كنت أستعد، بارتداء ملابسي الرياضية لمباراة في الساحة، بعدما أدعو حميد لخوض منافستها بحذائه الرياضي، ولضبط زمنها بساعته الإلكترونية.

وقبل أن أفتح الباب الذي يفتح على العالم الخارجي بكلّ ما فيه من أنماط الخير والشر، بكل ما يحمله من حدود وتجاوزات، ونور وانطفاء؛ قبل أن أفتحه انتابني شعور هلع مركز، كما لو أن حدساً مشؤوماً يغلف تفكيري، مصدره حاسة غامضة تنبع من روحي، وتستبق الكوارث؛ وفجأة قبل أن أسحب نابض القفل بأصابعي المرتبكة، سمعت صوت أبي في الخارج مخنوقاً يحاول جرّ نفَسٍ ليطلق به شتيمة حادة انحشرتْ بها حنجرته، خمّنتُ أنه عراك هو أحد طرفيه، إحساس ما أخّرني عن فتح الباب، تردّدتُ، وتنمّلتْ

أعضائي حتى أصابها البرود، على أنني كنت أشعر بأن ما ينتظرني في الخارج قد يكون مشهداً محمولاً بثقل من أسى سيرهق ذاكرتي لوقت طويل، حبست نفَسي وفتحت الباب وأنا أغالب صعوبة استجابة أطرافي، فُتِحَ البابُ فازداد صوت الحشرجة وضوحاً ووطأة.

وجدتُ أبي معلقاً في الهواء، يحاول التملص من يدٍ أحكمت وثاق قبضتها على ياقة ثوبه، زامّةً بها بلعومه بقوة. كانت هذه اليد يد شاكر أبي حميد.

كان أبي يُصدر صوت فحيح من بلعومه المحشور، ويحاول الخلاص بما يستطيعه من قوة، وظهر وجهه محمراً بصورة جمرة مغطاة بطبقة خفيفة من الرماد، وقد سقطت إحدى فردتي نعله تحته، وبقيت الأخرى معلقة في قدمه تنتظر السقوط، في حين تدلت غترته من رقبته على الأرض، وكانت بيجامته ممزقة من كمها الأيمن.

لم يمدّه جسده القصير والنحيل بالقوة الكافية للتحرُّر من رغبة أبي حميد الغريبة في إيذائه، وعندما وقعتْ عينُه على عيني، ورآني متسمّراً مأخوذاً بهول ما يحدث، انفجر بركان روحه وأخذ يتلوّى في الهواء، فترك وضع الدفاع إلى الهجوم بغرس أظفاره في جلد اليد القوية محكمة الإطباق عليه، وبركل الجسد الفارع الذي رفعه عن الأرض.

لكن هذا كله لم يؤثر بإصرار أبي حميد على إيلامه، والذي كانت عضلاته متصلبة، وعروق رقبته نافرة؛ بل إنه زاد إمعاناً في حلب روح أبي، فجعل يهزه، ويلوحه في الهواء.

انتابت أحشائي حالة من الغثيان، فأفرغتُ ما في بطني، وسعلتُ بقوة كادت تحرك رئتي من مكانها، لم أعِ ما يحصل، كان شعوري شيئاً مختلفاً عن تفكيري وأكثر تركيزاً منه.

كنتُ خارج جسدي.. منفصلاً عن ذاتي.. كنتُ أبي.

سقطتُ على الأرض بعينٍ دامعةٍ وبفمٍ يفيض بكاء.

لم يكن أبي في يوم من الأيام قدوتي، لم أجد في شخصيته شيئاً يشدّني للتشبه بسلوكه، وفي كل حياتي لم أنتبه لغيابه أو لحضوره، ولا أذكر أنني احتجته في أمر ما، لكن في ذلك العصر، لما رأيتُه يقاوم بلا يأسٍ مَنْ لا طاقة به على مقاومته، شعرت بأنه يقاوم من أجلي أنا، لا من أجله، لكي يظلّ حمَامُ اسمِهِ يحلّق مزهواً فوق برج عيني.

بكيتُ بصوت عالٍ، كأنني أتألم عنه. أتى ناصر وحيدر وإبراهيم وآخرون من أبناء شارعنا على ضوضاء ما يحدث، ثم خرج بعض الجيران، ووقفوا يتفرجون على حواف الأرصفة، ونساء مددن فضولهن من النوافذ باتجاهنا، حتى أصبحوا جمعاً يلفت الأنظار.

فترت قوة أبي، لم يصمد هيكله الضئيل في الدفاع عن نفسه، وقامت يده تضرب بضربات رمزية، في حين كانت عينه تعتذر لي بنظرات ترسل إشارات متألمة.

تدخّل رجلان من جيراننا، جاءا يهرولان من آخر شارعنا، لفكّ يد أبي حميد عن عنق أبي قبل أن يتسبب في مقتله، فصرخ أحدهما عندما وجدا صعوبة في فكّها وإصراراً من أبي حميد على المواصلة:

- كفى يا رجل ستقتله، عيب.. إنه جارك، اذكرِ الله، اذكر الله يا رجل، كفى.

وانهال بقية المتجمهرين من الكبار للحيلولة بين أبي وأبي حميد، فجعل أبي يقع من قبضته، لينطوي تحته محاولاً استرجاع روحه بجر أنفاسه قدر المستطاع، ولم يغادره إلا بعد أن قذف ركلة على بطنه، أكملت انقطاع نفَسِه، ثم تركه طريحاً ومضى إلى بيته؛ وقبل أن يغلق الباب، رفع إصبعاً مهدداً وصرخ، وقد تلاشى في وجهه كل أثر للطيبة، وحلّت تعابير الكراهية مكانها:

- اقسم بالله إذا رأيتُك مرة أخرى تتطلع على امرأتي من فوق سطحك فلن تتنفس بعدها إلى الأبد.

وأغلق الباب بقوة.

لهث أبي وهو يجذب أنفاسه بمشقّة، وسعل سعالاً جافاً، تلاه بصاق متتابع لبلغم متكاثف، كانت عيناه حمراوين، وتكادان تخرجان من موضعهما في وجهه، وقف بصعوبة وهو يدلّك رقبته، وترنّح قليلاً حتى استعاد ثباته، فالتفت على الموجودين كأنه يحصيهم، بصق على الأرض، وفجأة.. تغيّر وجهه المنهك، واتسع صدره، وارتفع صوت شهيقه، بدت عليه علائم الغضب ورغبة الانتقام، اقترب مني عند الباب فدفعني بيده عن طريقه، ثم أكمل إلى داخل البيت.

عندما هدأ روعي، كان المشهد قد تبدّل، راحت دموعي تنهمر على وجهي. كنت أنظر إلى المزيج الذي تقيأتُه وأتوجّع من بطني الذي أخذ الألم ينخسه بقضيب حامٍ، وكان منظر المتجمهرين حول

بيتنا مخزياً وممزقاً للكبرياء الذي اعتدت ارتداءه أمام أصدقائي، انتابني إحساس مضنٍ بالاختناق، حاولت أن أستنشق الهواء الطلق، لكنه تحول فجأة إلى المادة الصلبة، كأن على رئتي طحنَهُ حتى تسهل عليّ عملية التنفس، وأحسست بأن ضوء شمس العصر يعرّيني، ويفضح عريي في آن واحد. حاولت أن أدير وجهي إلى مكان آخر، غير أن العيون كلها بدت ضخمة، كأنها ملتصقة بوجهي، وتقف على مستوى واحد من الازدراء.

تحول المكان إلى خدعة من خدع الطبيعة التي تمارسها علينا لتثبت سحرها.

توقعت لوهلة أن أبي لن يخرج من البيت طيلة عمره، بل لن يخرج من غرفته، وسيترك كلبه للجوع وحمامه للضياع، وذلك لأنني أعرف أن كرامته تأبى عليه العودة إلى الحياة بعدما أهانته بقسوة وبلا تردد أمام الجيران الذين كان وزنهم بعينه أقل من ريشة حمامة رفعتها هبّة هواء. طالما نظر إلى الجميع من فوق السطح، وعامل الكل بفوقية، وهذا ما جعل بعضهم يتلذّذ بالنظر إليه مُهاناً بلا أدنى بادرة لإنقاذه.

اقترب مني إبراهيم محاولاً انتشالي من وقعتي:

- هيا قُم ولا تخف، إذا جاء أبو حميد مرة أخرى فسأريه ما لا يسرّه، قُم.. لا تبكِ هكذا أمام الناس قم.. فلنذهب إلى الساحة ونعدّ خطة للانتقام.

أشعلت كلمة الانتقام التي قالها إبراهيم في نفسي جذوة من العزم، كأنها دافع أو مفتاح لباب طاقة الروح.

تركته يثرثر فوق رأسي، وغبت في مخيلتي أتخيل أنني أغرس رمحي ذا الرأس السكّينية في ساعد أبي حميد وأُسمع الناس توجعه. تخيلت أنه يبكي ويستنجد بمن حوله، وهم يراقبون بأعين خاسئة، ولا يجرؤون على الاقتراب.

- هيا قم.

قال إبراهيم، وهو لا يعرف أنه لفظ الكلمة التي أقامت الدنيا بأسرها منذ فجر التاريخ، وكأن الإنسان خلق لينتقم من كل شيء في الحياة، التي يفترض أنه يعيشها الآن في الجنة، ينتقم من القوانين بتجاوزها، من العادات بتماديه عليها، من الطبيعة بإتلافها، من المرأة بإقصائها.

أخرجني إبراهيم من خيالاتي عندما تركني وهرب بغتة، (لماذا هرب إبراهيم؟)، وعندما بحثت عن السبب وجدت أبي ورائي كأنه رجل آخر لا علاقة له بالزمن الذي نعيشه، وأشرس بكثير مما عهدتُه.

أخطأت التوقع، خرجتْ منه تلك القوة التي خرجتْ مني حين قتلتُ الكلب فوق السطح، لم يكن وحده، بل كان يحمل انتقامه على وجهه، ويجرّ بيده كلبه الذي يلهث على كل شيء، ويحاول نهش كل شيء أيضاً.

هرب كلّ من تجمهروا عند رؤية الكلب ببنيته الضارية الضخمة وأنيابه الطويلة الحادة، ووقفوا بعيداً عن احتمال انقضاضه عليهم؛ حتى أنا ابتعدتُ معهم حين سمعتُه، وهو يمر بجانبي، يصدر صوتاً مرعباً ليس كالنباح، صوتاً يشبه الزئير، بل إن الزئير نباحٌ مقارنة به.

أخذ أبي يجرّ الكلب من سلسلة طوق رقبته بيد، وقد أمسك بالأخرى عصا غليظة، وراح كالقدر المحتوم إلى بيت أبي حميد.

ضرب بابهم بقوة، وهو يصيح بصوت لم أسمعه يخرج منه أبداً:

- اخرج يا ابن القحبة.

وجعل يركل الباب بهياج شديد، ويعيد:

- اخرج يا ابن القحبة.. اخرج.

عمَّ الصمت المترقب المكان، الجميع ينتظرون رؤية وجه أبي حميد عندما يصدم بمشاهدة الكلب، يريدون رؤية ماذا يمكن للكلب أن يفعل بالإنسان، وبلا شك يرغبون برؤية النهاية.. من سيغلب من؟

ازداد أبي هياجاً وراح يضرب الباب بالعصا، ويبتكر شتائمه بسخط:

- أرني رجولتك أو دعْ امرأتك تخرج لأريها رجولتي، لن أتحرك، سأكسر الباب وأفعلها بك في بيتك، اخرج وأرني رجولتك.

فتح أبو حميد الباب بسرعة، ليضع حدّاً نهائياً لفجور كلمات أبي، وما إن خرج حتى حبس الجميع أنفاسهم وتصاعد الدم في رؤوسهم واستولت عليهم الإثارة، كأنهم أمام فيلم سينمائي يجري على أرض الواقع.

أمر أبي كلبه بلغة لا يفهمها غيرهما بأن ينقض على شاكر ويمزقه:

- سووو.

* * *

طال ذلك اليوم كثيراً حتى خلتُه لن ينتهي، كأنّ لحظاته تعبُر من خلال ثقب في الزمن على صورة قطرات لزجة بطيئة الانزلاق.

وقفت عند عتبة باب بيتنا أسترق النظر إلى بيت حميد، لعلي أظفر بخبر يريحني من قلقي الذي امتصّ ماء مخي، فما جرى عند باب بيتهم عندما فتحه أبو حميد قبل ساعات أكبر وأثقل من أن تستوعبه عقول الكبار فضلاً عن عقول الصغار.

لا أعرف هل كان الشعور الذي انتابني للحظات عندما رأيت أبا حميد مهزوماً يحاول تخليص ساقه من فك الكلب، في حين كانت عصا أبي تتردَّد على وجهه بقوة، هل هو شعور بالتشفي؟ أم هو شعوري بالفوز بأن أبي أفضل من أبي حميد؟ وبالتالي يمكنني التعالي على إحساسي بأنه أفضل مني، أم أنه كان الانبهار البشري الخالص عند رؤية إرادة الحيوان تتحرك بتناغم تام تحت إرادة الإنسان في النيل من عدوه بتفانٍ غريزي وبتفاعل باطني مع رغبة الانتقام الذي تتوقد في أعماقه؟

لا أعرف، ولن أستطيع أن أعرف، لأن هنالك أيضاً شعوراً خالصاً بالحزن والشفقة لم أفصح عنه لنفسي، شوّش عليّ التمييز، فقاومتُه بكل ما أستطيعه من تبرير، وذلك عندما دخل حميد في المشهد، وأراد أن يساعد والده في التخلص من أنياب الكلب، فما كان من والده إلا أن دفعه بقوة إلى البيت وأغلق الباب وشدَّ على حلقته الخارجية لكي يمنع ابنه من اقتحام الخطر.

كان حميد مرتاعاً، ويبكي كأنه فقد أغلى ما يملك، كأن ما يحدث أمامه خارج عن نطاق القوانين التي وضعها للحياة كي لا

تكون مملة كمباراة بلا قوانين، كأنه يحاول إنقاذ كلمة (قال أبي) التي يدلِّل بها على صحة ما يقول.

كنت أنظر إلى كلّ هذا المشهد من الرصيف المقابل لبيتهم، وأسمع آهات أبي حميد المكتومة التي فرّت من قوة احتماله من طريق الألم الذي لا يُطاق.

تعاون أبي وكلبه عليه حتى أرهقاه من الوجع؛ أحسستُ في نهاية الأمر أن أبي يريد إنهاء هذه المعركة، لكنه يخشى استفاقة خصمه، كان واضحاً أنّ نار الانتقام خبتْ في صدره بعدما أبرد تحرّقها، وكلّتْ بعدها قوته وإصراره على القتال، اكتفى من ردّ اعتباره.

وكان المتجمهرون حوله قد تخلّوا عن شهامتهم، واكتفوا بالمشاهدة الصامتة، ولم تصدر منهم أي بادرة لإنهاء القتال.

وفي غضون هذا الارتباك المدعم بالحذر، نزلت دورية شرطة من السماء استجابة لبلاغ هاتفي، قام به أحد الجيران، بوجود مشاجرة وتجمهر في الشارع.

كان هذا ما ينتظره أبي، فسرعان ما أمر كلبه، باللغة ذاتها التي لا يفهمها غيرهما، بالكفّ عن التمزيق، فانصاع الكلب لأمره وتراجع بحذر، ثم وقف وراءه متأهباً كأنه ينتظر أمراً آخر بالانقضاض.

استطعت أن أرى الثقوب التي أحدثتها أنيابه في ساق أبي حميد، كانت سوداء وغائرة، سال منها الدم فخضب السروال الأبيض الذي كان يرتديه، وكان هنالك دم آخر خرج من أنفه ومن

فمه أيضاً، وكان في حالة تشبه حالة سكرة الخمر، يئنّ شاداً عضلات وجهه، ممسكاً بساقه المعضوضة بيد، وفي اليد الأخرى مغلقاً باب بيته.

كانت النهاية تحمل كلّ معاني المأساة، تحوّل العالم إلى مسرحية تراجيدية، تؤديها عائلة شاكر على مسرح عتبة بابهم.

أرخى أبو حميد قبضته عن الباب، فخرج حميد وصفاء وأمهما يبكون بكل ما يستطيعونه من دمع، يحاولون امتصاص الألم الذي انتقل تباعاً في مشاعرهم، وكان يعتريهم شعور آسر بوحدة المصير كأسرة واحدة.

وجه حميد وهو يبكي يبعث على الأسى، كان انهزاماً أكثر منه بكاء، فها هو مَثَله الأعلى لا يقوى على رفع رجله، وها أنا والبقية ننظر إليه وإلى أمه وأخته بأعين تبحث عن مواطن نقصٍ في الآخرين لتملأ بها مواطن نقصها؛ إنها نظرة الناس، النظرة التي يخشاها المجتمع بأكمله، والتي تسبِّب هلعاً نفسياً لا يسهل علاجه، وتجعل الحياء مساوياً للموت، فقد جبلت هذه المجتمعات، بتكوينها الفطري، على حبّ التفاخر، فإنْ لم يكن التفاخر متاحاً فعلى حب رؤية عيوب الآخرين، حتى يفخروا أمام أنفسهم على الأدنى بأنهم يحملون عيوباً أقلّ منهم.

توقف مسار الحياة للحظة، كنت أنظر بها إلى صفاء وهي تحتضن رأس أبيها وتنشج من البكاء، تحرّك شيء ما بداخلي من مكانه، وقلتُ بكلّ ما أستطيعه من صمت (تبّاً للآباء.. وللكلاب).

كانت دموعي تنهمر على خدي، بكيت تفاعلاً معهم بكاءً يفوق قدرتي على احتمال صده، ثم ضغط انكسارهم على صدري أكثر، فانفجرت وشتمتُ أبي بصوت عال، وأمام الجميع، فوصفته بأنه مجرم يستحقّ السجن. راح أبي يسمعني بلا اهتمام، ينظر إليّ بصمت، فشعرتُ أنه ليس هنا، كما لو أن له وجوداً آخر في عالم موازٍ لعالمنا.

لم يدُم ذلك المشهد طويلاً بوقته الملموس في الساعات وانشطاراتها الداخلية، لكنه في زمنه الاستدلالي بداخلي امتد بعيداً، لأبعد نقطة يمكن أن يصلها العمر.

أخذ أبي الكلب إلى السطح، بينما الارتباك والصمت يعمّان الجميع، وعاودت العيون التلصُّص اللّزج والملوّث على جرح عائلة شاكر.

في النهاية عاد أبي من الداخل رثّاً ومرتبكاً على نحوٍ مخجل، حتى إنه كاد يسقط عندما وطِئ الشارع، فسقطت غترته على الأرض، ثم انحنى ليلتقطها، فتعثر ثم كاد يسقط مرة أخرى.

اصطحبته الشرطة إلى المخفر، رمقني من داخل الدورية بنظرة خاوية، ولا يظهر منها أي دلالة على الندم.

تطوع أحد الجيران وحمل أبا حميد إلى المستشفى مع حميد يعينه على الوقوف، توكّأ على ابنه وهو يتوجع، فترك على عتبة بابهم قطرات دم تتابعت خلف خطاه حتى توقفت عند الرصيف.

أسدل الستار، تفرقت العيون، أغلقت الأبواب.

2

انقطعت العلاقة الجميلة التي دامت لفترة قصيرة بين بيتنا وبيت شاكر، توقفت الزيارات، لم تعد صفاء تأتي لتراجع لها أمي درس اللغة العربية، وضعت اللوم كله على رأس أبي، ويوماً إثر يوم تفاقم كرهي له.

كنتُ قد أخبرت أمي عن سبب المشاجرة، فنهرتْني وهي تؤكِّد أن أبي طوال حياته فوق السطح ولم تحدث منه خائنة للجيران، وعللتْ بأنه قد يكون أبو حميد يغار على امرأته بشكل يفوق العادة، وهي ذات الجمال الأخّاذ، فلعله توهم أنه رأى أبي يغازلها من السطح.

لم أقتنع بهذا التبرير الاستسلامي، فهل يُعقل أن أبا حميد قرَّر استعمال العنف لأنه رآه يطل مرة واحدة على بيته؟

- استحِ يا ولد.. عيب إنه أبوك، ثم ما أدراك أنت بنوعية أبي حميد؟

لم أجبها بشيء، ولم أقتنع منها بشيء.

في المدرسة كان الحيّز الذي يملؤه جسدي من الوجود فارغاً بنظر حميد، كأنه لا يراني، حتى إنه ترك مكانه المميز، وعاد إلى المكان الذي جلس فيه لأول مرة، لم يعُد يعير انتباهه للأصدقاء ناصر وحيدر، راح يبني علاقات جديدة بين أصدقاء جدد في الفصل بعيدين عن شارعنا.

مرّ اليوم تلو اليوم والأسبوع بعد الأسبوع، وازداد البعد بيننا

رغماً عن قصر المسافة التي تفصل أجسادنا، رحنا نلعب الكرة بعد صلاة العصر بالقوانين التي تعلّمناها من حميد، ورغم أننا لم نتساهل في تطبيقها إلا أنها لم تكن مشوّقة كما كانت معه، لكنها على أية حال تزيح ثقل الوقت عن كاهلنا، وتقطعه بنا إلى صلاة المغرب بسرعة لا بأس بها.

حدث أثناء هذا أنْ شاهدنا كلباً ضالاً تائهاً على غير وجهة يهرول في الشارع، انتاب ناصر حماس غامر لاصطياده قتيلاً، وتنادى كل الأصدقاء للعبث، إلا أنا أحسستُ بأن قتل الكلاب عملية نجسة لا تطهرها إلا دموع حميد، فأعلنت لهم عدم رغبتي في مشاركتهم، فانطلقوا يركضون وراءه، حتى أصبحتُ وحيداً في الساحة أركل الكرة على اللاشيء، وأنظر إلى بيت حميد هناك مقفلاً بابه عليه وعلى صفاء وحلمي.

أدهشتُ أمي بزيادة وزني، خصوصاً أنها تعدّ زيادة الوزن من علامات الصحة الجيدة، ازددت عدة كيلو غرامات، وجدتُ شهيتي تزداد شراهة عند كل وجبة، وقمت آكل كلّ ما تضعه الخادمة أمامي وأقضي عليه بسرعة وبلا استمتاع.

* * *

كل شيء تغيَّر من دون سابق إنذار، لم تعُد الحياة هي المضي في اليوم إلى أكمله، لم تعد الليل والنهار، اليوم وغداً، ليس هنالك طعم غير طعم ليس له مذاق، له نكهة الهواء، الفراغ.

مؤكَّد أنني أرهفت في تصوري للموت حينها، فتخيلتُه وسادة يستلقي عليها تعب الناس وإرهاقهم من مكابدة مشاعرهم المؤلمة

حين يعيشون من أجلها، ومع هذا أصبحتُ أخافه، أخافه لدرجة أنني أخشى أن أنام ولا أستيقظ، وهكذا أمضيت أسابيع كثيرة في معزل عمّا يدور حولي، أعيش في أقصى زاوية بداخلي متقوقعاً على ذاتي، وأتعامل مع الجميع كنوع من تعاملنا مع الحكايات التي سيبتلعها النسيان، وتذهب مجرد كلمات في حديث عابر.

اعتبرتُ العالم مركّباً بطريقة خاطئة ويتعين عليّ تفكيكه وإعادة تركيبه بشكل صحيح كلعبة الليغو، حاولتُ أن أكره كلّ شيء ليتسنى لي كره بيت حميد أو نسيانه، ورغم هذا لم تبرح نفسي تتوق إلى حميد وإلى صفاء بازدياد كل ليلة، وكأن الأحداث تكبر وتتكاثر على وسادتي، وتتجذر في داخلي أكثر، كأننا ثلاثتنا اتحدنا في جسم واحد، وانفصلنا عن بعضنا كأجزاء غير مكتملة.

كنت في كلّ يوم أقف مساء عند عتبة بابنا، مقاسياً البرد، مُيَمِّماً وجهي تجاه بابهم، وكان الحظ يجود معي في تجليات سريعة لصفاء، حين أراها تصعد مع أبيها السيارة، أو تنزل مع أمها منها، أراها تزداد جمالاً واستحالة في كل مرة، وأتمنى لو أن اللحظة تقف عندها إلى الأبد، وما كان الأبد في تصوري في ذلك السن إلا امتداداً سينتهي إذا كبرت، لتكون الحياة لعبة لها قوانينها التي تعطي لها معنى، وكانت الدموع تنهي تلك الأوقات، فأدخل وأصعد إلى غرفتي لأكمل نوبات لهفتي.

في أحد الصباحات، تزامن وقت وصولي إلى المدرسة مع وصول حميد، وكان البرد في أشدّ موجاته صقيعاً، حتى إن الشمس بدت منكمشة على نفسها ولا تصدر أي دفء. مشى حميد أمامي في

الممر المؤدي إلى الفصل بمشيته الواثقة، وبخطاها الثابتة، رافعاً رأسه قليلاً، مرتدياً معطفاً يصل حتى ركبتيه.

كنت أمشي وراءه بخطوات متشنجة، متدثراً أنا الآخر بمعطفي، وقبل أن ينتهي الممر رأيته يلتفت إليّ ويبتسم.

لا أعلم هل خيِّل لي أنها ابتسامة أم أنني توهَّمتها ولم يكن يلتفت إطلاقاً؟! تبعته مسرعاً حتى حاذيته، بان الجانب الأيمن من وجهه هادئاً وخالياً من التعكير، اقتربت منه وأنا أراود وجهي عن ابتسامة أريدها أن تأتي صافية لا شية فيها، وفجأة.. ومن دون أن ينظر إليّ قال بصوت لا ينم عن مودة:

- سلمان.. لا أريد الاقتراب منك، هل هذا واضح؟

لسعتني كهرباء غريبة، تسمّرتُ في مكاني مرتعداً مضطرب الأنفاس، وأصبحت الشمس ساخنة على نحو مشتعل.

لحقته قبل أن نصل إلى الممر الذي يفصل صفوفنا عن صفوف الرابع الابتدائي، وقلت:

- أبي أخطأ، فما دخلي أنا حتى تجافوني؟

فأجاب، وهو لا يزال مشيحاً بوجهه عني:

- لا نجافيك، نريد الابتعاد عن المشكلات وحسب.

- وهل سبَّبت لكم مشكلات؟

- لا.. لا أستطيع أن أشرح لك، دعنا نبتعد عن بعضنا فقط.

كان يجب عليّ تركه، والابتعاد عنه أكثر من ابتعاده عني، لكنني رغم هذا جعلت أتقرب منه مثل كلب كلما ضربه صاحبه ابتعد قليلاً

ثم عاد ليتقرب منه أكثر. أأصابتني لعنة الكلاب أم أن النفس البشرية خلقت من المادة نفسها التي خلقت منها أنفس الكلاب؟ هذه حقيقة، فلماذا عندما نحب شيئاً لا يحبنا نجدنا نميل إلى الانجذاب إليه حتى ولو على حساب كرامتنا؟ أليس هذا ما يفعله الكلب، ونسميه كذباً الوفاء؟ أي وفاء على حساب الكرامة يُعتبر في حقيقته غدراً لها، وقد غدرت بنفسي مراراً أمام الجميع.

تسقط من الطاولة أشياؤه، أكثر من مرة، فأقوم من مكاني أمام الطلاب لأحملها من الأرض وأعيدها إلى مكانها، كان منظري مضحكاً وأنا أقوم بهذه الحركة المثيرة للسخرية، لم يتوجب عليّ أن أكون بمثل هذا الانحناء لأحد، غير أني لم أكن أشعر بنفسي وأنا أؤدي هذه الأفعال الكلبية أمامهم، حتى تجاسر أحدهم وقال بصوت عالٍ:

- سلمان تعال بسرعة، سقط قلمي على الأرض.

فتعالت الضحكات بين الطلبة، وكان من بينهم ناصر وحيدر وممدوح المغربية، فلم أكترث لها، كنت صابّاً تركيزي كله على وجه حميد الصامت.

أصبح حميد عندي شيئاً يعادل المستحيل الذي أطمح إلى بلوغه، فلو سألني المدرس الآن: ماذا تريد أن تصبح إذا كبرت، لقلت: أريد أن أصبح صديقاً لحميد.

لم أسأل نفسي عن سرّ هذا الانجذاب المهين، عن إصراري ومثابرتي على إنكار ذاتي أمامه، هل كان هذا هو الشكل الأكمل للحب؟ عندما يصل الحب بالقلب إلى مرحلة نهائية يكون المحبوب

فيها هو الغاية التي خلق الكون من أجلها، ويصبح هو مصدر الجمال والانبهار والاكتشاف، لكن حبّي كان لصفاء وليس له، فهل أحببت فيه الوسيلة التي يكون لحبها حب الغاية نفسها؟

كنت على استعداد تام لأن أطيع أوامره مهما كانت، لو يسمح لي بأن أصاحبه فقط؛ ومن ناحيته هو استمر في إلغائي من عالمه، كأنني لم أخلق فيه، فاستمررت في محاولاتي لتأكيد وجودي عبره.

كانت طريقته في المشي، وتصرفاته في الفصل، وهيئة جلوسه، ومعاملته لزملائنا، كلها تعني لي القمة والكمال الذي لا يُتَجَاوَز. فهو الأول في الفصل، والأكثر نشاطاً، والأقل كلاماً.. والأبعد شعوراً.

قمت أقلده في كل شيء، وقبل كل شيء أنوي فعله كنت أسأل نفسي: (كيف سيفعله حميد؟).

مرّ الشتاء، وعاد الدفء إلى الصباح، وابتدأت عطلة الربيع، وانتهت، ولم يطرأ تغيير على علاقتنا، واستأنفنا النصف الثاني من العام الدراسي بلا جديد.

لم ينبس معي حميد ببنت شفة، استمر الجدار الذي بناه بيني وبينه بالعلو أكثر وأكثر، واستمررت بمحاولة تسلقه والوصول إليه.

وقبل أن ينتهي العام الدراسي، كنت أتوجس الخوف من آخر يوم فيه، اليوم الذي سيكون الوجود بعده مع حميد في مكان واحد أمراً يصعب حدوثه.

وجاء آخر يوم قبل أوانه، فقد قلّ عدد الطلبة بشكل تنازلي مع كل يوم تقترب فيه النهاية، حتى رأت أمي في ذهابي إلى المدرسة

أمراً غير ذي فائدة، خصوصاً أنها تعلم بأننا أنهينا المنهج قبل أسابيع، وأن الحصص الآن خاوية بلا معنى، فقررت إنهاء الدراسة لهذه السنة قبل أن تنتهي بأسبوع، لتبدأ العطلة الصيفية التي وقع بها الحادث الذي غيَّر مجرى حياتي إلى الأبد.

3

نفث الصيف سمومه على سماء منطقتنا، احترق الهواء هجيراً، واشتعلت الأرض قيظاً، خنق الركود والملل الوقت، سافر من سافر من أبناء شارعنا مع أهلهم، وبقي من بقي يتلظى بحرارة شمس شهر تموز/ يوليو.

بحثت أمي مع إخوانها خطة السفر بصحبتهم، بعدما أخبرها أبي بأنه سينهمك طيلة العطلة في توسعة برج الحمام وإرفاق خانات إضافية تساعده في تحسين نوعية الإنتاج. وكنت أثناء هذا كله منغرساً عند باب بيتنا، أتجذر نحو بيت عائلة حميد.

أراهم يخرجون، ويدخلون، ويعودون ويذهبون، ويفعلون هذا طيلة الوقت من دون أن ينتبهوا لجلوسي. صفاء لا تنظر إليّ، وحميد لا يراني.

أحسستُ أني زائد في المكان، ليس لي دور في هذا العالم المعقَّد والمنغلق، حتى أحلامي ومقاصدي لا يجاريها الحظ ولا تعترضها المصادفات.

في كل يوم كنت أزداد إحباطاً ورغبة في الانتهاء، وكان العالم يحاصرني من كل جهة، كأن الحياة حرب لا تكاد تنتهي حتى تعود

أشرس وأشد عداء، ريثما وصلتْ بي الحال إلى أن استحليتُ طعم البكاء؛ وأذكر أنني قمت بالتسلل إلى سيارة أبي واختلست منه عدة كاسيتات لأغانٍ عراقية تتغنى بمواويل مولولة تضخم كلماتها ألم الهجر وتلعن الحب وجفاء الأحبة. أخذتُ أستعين بها في غرفتي على استدرار الدمع، ماداً لوعتي بألحانها الحزينة وصوت مغنيها الباكي، وأعيدها مراراً وتكراراً كل ليلة.

وفي خضم هذا البؤس حدث الشيء الذي غيّر مجرى حياتي كلها، وبرح ثلماً لم ينمحِ إلى هذه الساعة، كان أكبر من استيعابي لطريقة الحياة في تعذيب البشر بصدوف الدهر.

حدث ذلك في صباح أول يوم خميس من شهر آب/ أغسطس، كانت أمي تهمّ في تجهيز الحقائب بعدما رتّبت مع إخوانها وجهة السفر وحجزت تذاكر الطيران، فتذكّرَت بعض النواقص اللازمة، ثم أيقظتني باكراً لأصحبها إلى السوق. حينما ركبنا السيارة كنت لا أزال أغالب النعاس ولا أرغب بشيء غير النوم، وكانت الشمس تجبرني على أن أغمض عيني تفادياً لأشعتها، وما إن تحركت أمي بسيارتها حتى توقفت فجأة وقوفاً خضني في مكاني، فتحت عيني فوجدت أبا حميد يقف عند مقدمة السيارة ببدلته العسكرية. تمتمت أمي:

- ماذا يريد؟

فتحتْ زجاجة النافذة، وسألتْه عن الأمر:

- لا أنصحك بالذهاب الآن فالوضع، أقصد الشوارع، غير آمنة.

لاحظتُ ارتباكاً يعلو صوت أمي وهي تقول:

- ماذا حدث.. ماذا هناك؟

وضع أبو حميد بصره على الأرض وقال متأثراً:

- اجتاحنا جيش صدام.

انهار صوت أمي وبدأ الاضطراب يهز نبرته:

- كيف.. متى.. ولكن العراق!!

قاطعها وهو يهم بالذهاب إلى سيارته:

- اجلسي في بيتك، وأخبري أبا سلمان بما حدث وخذوا حيطتكم.

وركب سيارته، واختفى بها منعطفاً خارج شارعنا.

أطفأت أمي المحرك، وكانت يدها ترتعش وتهز سلسلة المفاتيح بغير قصد، توجستُ الخوف فيها وخفتُ معها. نظرتْ إليّ نظرة مشفقة، وأمرتني بالنزول.

وعندما ترجلت من السيارة سمعنا صوتاً متفجراً مرعباً يصم الآذان ويأتي من السماء. رفعت رأسي، فرأيت طائرات حربية تخوض الفضاء مثل كتل ملتهبة وبسرعة مريبة.

ركضت أمي تحتضنني، وانحنت بي للأسفل تحاول حمايتي من الصوت، وجرتني مرعوبة إلى البيت. جاءنا أبي يركض بوجه منزعج ومتحفز للشتم:

- ماذا حدث؟

أخبرته أمي بما قاله أبو حميد.

- وما أدراه هذا الأبله الجبان؟

- ولماذا سيكذب علينا؟ إنه في الجيش ويعلم أكثر منك.

ردّت أمي.

خرج أبي كالتائه يبحث عن دليل ما يقوده إلى الطريق، وصاحت أمي خلفه:

- أين تذهب؟ يقول الشوارع غير آمنة.

شعور بالرعب استولى عليّ، متأثراً بطريقة أمي وحديثها مع جدتي بوجهها المتهيج، وبصوتها الذي كان يحمل من اليأس ما يقوّض كل أمل تحمله الكلمات عندما هاتفتها تخبرها بما حدث.

- هل سيقتلوننا أمي.. هل سنموت؟

قلت وأنا ألتصق بها من الخوف.

- اسكت الآن ودعني أكلم جدتك.

كانت خائفة من الإجابة عن سؤالي، وأنا كذلك كنت خائفاً من إجابتها، جلسنا في البيت بعدما أطفأت جميع الأنوار كإجراء وقائي، وتركت التلفزيون يعمل على القناة الأولى، ورحنا ننتظر الأخبار وعودة أبي.

كانت الطائرات تزمجر في السماء وتثير رعبنا، وبين صوتها المتكثف في المكان، والهدوء الخفيف الذي يفصل غاراتها عنّا، تناهى لنا صوت إطلاق نار، لم نحدد اتجاهه، بل إننا لم نحدد هل

هو وهمٌ أم حقيقة، فوضعتني أمي في زاوية الصالة واحتضنتني، ورحنا نرتجف معاً من الرعب، وكانت الخادمة تصيح في الزاوية الأخرى، وقد توقف رأسها عن الاهتزاز على غير العادة.

طال انتظارنا لأبي، حتى عاد في الظهر متعرقاً ويائساً مطأطئ الرأس، كأنه بيت قديم مهجور.

وقف أمام باب الصالة، وتطلع إلينا مليّاً، ثم تأوّه:

- اجتاحنا جيش البعث.

تنهَّد بعمق ونظر إلى الأسفل بحزن، وأكمل:

- سقطت الكويت.. نعم الكويت.. سقطت (عضّ شفته السفلى) نعم سقطت!

فأسند ظهره إلى الجدار، ثم انزلق على الأرض، وجلس محتضناً ركبتيه، وأجهش بالبكاء.

لأول مرة أراه يبكي، وهو الذي كنت أعتقد بأن ليس في عينيه الغاضبتين والمحمرتين دائماً نقطة دمع، كان بكاؤه ملتهباً يشبه الصراخ المختلط بالضحك، لم أحدده هل هو بكاء المقهور أم المحزون أم أنه بكاء المتألم.

صرخ بعد قليل:

- كيف يجرؤون، أبناء القحاب، كيف فعلوها؟

كلٌّ من علم بالاجتياح يقول كيف فعلوها، كأنهم متفقون على استحالة هذا الفعل.

بكت أمي أيضاً، فالتصقتُ بها أكثر ورحتُ أبكي معهما.

حالما سكت أبي رفع رأسه فرأيت وجهه مبللاً ومتهدلاً كخيمة ممزقة مسّتها سحابة. أخرج سيجارة من جيبه وأشعلها وهو يفكر بشيء يبدو أنه جاد فيه، وينفخ دخانها فوق رأسه، وبعد برهة نشق أنفه عدة نشقات، وتمتم بصوت متهدج:

- سيندمون أبناء القحاب.. أقسم إنهم سيندمون.

ثم اضطرب صوته وصرخ بانفعال:

- سيندمون.. أبناء الكلب.

ودخل في نوبة بكاء أخرى.

* * *

سجا الليل، وأضفى على تشاؤمنا حلكة أخرى تثير المزيد من المخاوف المترسبة في قاع النفس، ونحن، أنا وأبي وأمي، لا نزال في الصالة نتبادل نظرات الخوف، ونمد بعضنا بتوقعات مصيرنا البائس.

- هل سنموت أمي؟ قلتُ.

- إذا أبادوا جيشنا فسيبيدوننا بكل تأكيد، فماذا نفعل الآن؟ سألت أمي أبي.

- إذا ذهبت الكويت فلتذهب معها الدنيا.

أجاب أبي بصوت مشبع بالقسوة وهو ينظر إلى الفراغ بكره شديد.

- دعنا نهرب إلى السعودية.

قالت أمي، بينما هو غارق في تفكير عميق. وأكملت:

- كلمت إخوتي وقالوا إنهم قد يهربون إلى هناك.

وبصوت غاضب مخنوق قاطعها:

- إخوتك جبناء ملاعين.

- فكر بعائلتك.. لا فائدة من الجلوس هنا.

- هل تطلبين أن أخذل وطني لأجل عائلتي يا حمقاء!!

- ليس بيدنا شيء.

برح أبي المكان وصعد إلى السطح، وراحت أمي تُجري الاتصالات مع إخوتها وجدتي لتتفق معهم على الخطوة القادمة.

- أمي.

- ....

- أمي.

- نعم نعم.

- هل نحن الآن «بدون»؟

- ....

ذهبتُ إلى الخارج لألقي نظرة على السماء، فتحت باب البيت فكانت كل الأشياء حزينة في الخارج.

وقفتُ أتأمل شجرة الصفصاف الصغيرة أمام بيت جارنا المقابل، إنها تبدو الآن يابسة رغم اخضرارها، مائلة وهي في الحقيقة معتدلة الساق.

كل شيء يأخذ شكله الخارجي من انعكاس نفسياتنا عليه،

فالألوان البراقة في الفرح تبدو شاحبة في الحزن، والأشكال الرائعة عندما يكون اليأس متفرداً في الشعور تكون خالية من الجمال، إنها نفس الإنسان والعالم المخفي الذي ينشأ فيها وتفرضه على العالم الظاهر، عوالم من وهم تُصنع، وعوالم تختفي وتُزاح رغم أنها حقيقة.

ساحتنا هناك خالية من الضحكات، وقد مُحي أثر خطواتنا الفرِحة من فوق ترابها. وبات الظلام فوقها كما لو أنه أبدي، وهذا الرصيف الذي أمامي كم يبدو تعيساً ومتسخاً. جلست على عتبة بابنا تجرفني تيارات تفكيري المنهزم والمتشائم.

لا بد أننا سنموت، أنا وأمي وأبي، سيأتي جيش العدو الآن ويبيدنا جميعاً مثلما أباد جيشنا.

تخيّلت الطائرات النفاثة تهبط فوق شارعنا، وتخرجنا من بيوتنا وتقتلنا واحداً تلو الآخر، رجال أشقياء ضخام يأتون ويخرجون الدم من أجسادنا وهم يضحكون، بكيت من الخوف، وارتعش فكّي. لا بد أنهم سيعذبوننا قبل القتل، فجاءني صوت لم أتوقعه:

- ما بك تبكي؟

التفتّ أبحث عن مصدره فلم أجده.

- سلمان، أنا هنا.

فاتني أن ألتفت لاتجاه بابهم، وكأن الخوف محا كل الأشياء الجميلة التي قد تواسيني.

كان حميد جالساً فوق عتبة باب بيتهم.

- هل أنت خائف؟

سألني.

مسحتُ دموعي والتفتُّ إلى الجهة المعاكسة.

- الخوف مفيد إذا سيطرتَ عليه ووجّهتَه بشكل صحيح، لكنه إذا جعلته يستبد بك فسيكون أسوأ من الأمر الذي تخافه.

كان صوته جاداً وأكبر منه، قمتُ أنشج بصوت خافت وأمسح دموعي وهو يكمل:

- لعل في ما حدث خيراً، أو لعلّ فيه دفعاً لشرٍّ أكبر منه، لا نعرف.. كل ما نعرفه هو أننا يجب أن نصبر، هذا ما أخبرني به أبي قبل أن يذهب.

وقف، ومكث قليلاً، ثم جاءني يمشي بخطوات متأنية وجلس بجانبي، وأكمل:

- أبي تركنا والتحق بمقرّ عمله، نحن وحيدون الآن، أنا وأمي وأختي. هل تعلم أن حالكم أحسن من حالنا؟ على الأقل سيبيت أبوك معكم، أما أنا فلا أعلم أين أبي الآن؟ ولا أعلم ما حصل له؟ قل الحمد لله، فأنت أفضل من غيرك.

توقفت عن البكاء، وجعلت لا أنظر إليه وهو يقول:

- نحن لا نعلم الآن ماذا حصل؟ لعلّ جيشنا انتصر، قال أبي قد ينعقد اتفاق بين حكومة الكويت وحكومة العراق وينتهي هذا كله.. لا تخف، فالأمر ليس كما تظن.

كان لكلماته قبس يوقد الأمل، بدا حميد قوياً، حتى كأنه أقوى من قبل.

- اذهب الآن ونَمْ، وتوقع الأخبار الجيدة في الصباح.. تصبح على خير.

تركني وذهب يمشي إلى بيتهم، نظرت إلى مشيته وهو يعبُر السياج الخشبي القصير الذي يفصل حدود بيتنا عن بيتهم، مشية عجزت أن آتي بمثلها مهما قلدت ماشيها.

* * *

شتم أبي دموع أمي للهرب مع إخوانها إلى السعودية، وكان يردّ عليها بجملة واحدة في كل مرة:

- لست أنثى مثلهم.

ويضيف عليها أحياناً:

- ولن أخرج إلا جثة.

لكنه سمح لها، مشيحاً بيده، بأن تأخذني و«تنقلع» معهم إذا أرادت، وكانت ستفعل لو لم تغير رأيها قبل يوم من هروبهم، لأن خبراً ما انتشر يؤكد بأن الجيش الصدامي سينسحب آخر الأسبوع بعد توصل المؤتمر العربي لاتفاق بين البلدين ينهي الخلاف المبهم الذي اختلقه حزب البعث الذي يحكم العراق. وهذا ما جعلها تندب حظها بعد أسبوعين، عندما جاء خبر تدفّق المزيد من القوات الغازية في البلاد وإعلان الكويت محافظة عراقية.

تبدل سلوك أبي مع كل يوم يمضي في الغزو، كان يخرج من البيت بعد غروب الشمس ويعود مرهقاً بعد منتصف الليل، وكانت أمي تزيد إصراراً في طلب الهروب كلما عاد.

سمعتها ذات يوم في غرفتهما تقول له:

- ماذا نفعل إذا قتلوك؟

ارتعبتُ من وراء الباب إذ قفز في رأسي مشهد أبي مخضباً بالدماء، ركضتُ مرتعشاً إلى غرفتي، واختبأت تحت السرير.

كان هناك تغيّر آخر طرأ على أخلاقه، وهو ما لاحظته عندما طلب من أمي أن تنسى ما كان بيننا وبين بيت أبي حميد، وأن تزورهم لتتفقد نواقصهم ليكملها، وراح يقسّم بيننا وبينهم ما يجلبه لنا من طعام، ويسأل كل يوم عن أخبار أبي حميد، الذي خرج في أول يوم للاجتياح ولم يعد منذ ثلاثة أسابيع.

وهكذا تحسنت علاقة أمي بأم حميد، فكانت تزورها بين يوم وآخر تقريباً، وتمكث في بيتها فترة ما بين العصر والمغرب، وكنت أقضي تلك الفترة مع حميد، بعدما أعاد هو بنفسه مياه صداقتنا إلى مجاريها، لكن صفاء كانت لا تزال مبتعدة، وفي عينيها نظرة توحي برغبة الاقتراب.

كل يوم يتمدد الفراغ في شارعنا أكثر من اليوم الذي قبله، حتى أصبح خاوياً على نحو لا يستطيع العدم فعله، تكدَّست أكياس القمامة السوداء، وبعثرت الريح محتوياتها على أرصفته التي بلغ ركام التراب إلى منتصفها، حل التجهم على وجهه الذي كنا نصنع

بهجته، ماتت الصفصافة الصغيرة أمام بيت جارنا، تركها وهرب إلى السعودية كما فعل بقية الجيران، لم يتبق في شارعنا غير بيتنا وبيت حميد وبيت إبراهيم في آخره. نجتمع نحن الثلاثة بعد العصر أمام بيتنا، حيث لم تسمح لنا أمي باللعب في الساحة، لأنها رأت فيها خطراً في هذه الظروف المحيقة، وأنه من الأفضل أن نلعب قرب الباب. كانت صفاء تجلس أمام بابهم تشاهدنا ونحن نركل الكرة بيننا بلا هدف، لنشعر بالأمان فقط، ولنبعد السكون عن شارعنا، لأنه يجعله مذعوراً ومخيفاً.

وصار الليل سميكاً إلى حدٍّ يجعله جاثماً فوق صدر منطقتنا، ومطبقاً، يمنع تنفسها ليعمّ الصمت المميت الأشياء كلها، كأنه يبذل قصارى جهده ليكون صندوقاً محكم الإغلاق، يتخلله نباح الكلاب الضالة التي عادت للظهور من جديد، متكبّرة لا تهاب أحداً، وأعيرة نارية أحياناً هنا وهناك، ويستمر الليل حتى يأتي الصباح صامتاً مكتئباً كما لو أنه يتوق هو الآخر للهرب من النظام المحتل. وكان الشيء الوحيد الذي يبث في نفسي الطمأنينة هو وجود حميد بجانبي، لم يكن في عيني مجرد صبي صغير، وإنما كان سوراً يمكنني الاختباء خلفه متى فوجئت بمكروه. وكان يزودني بالتفاؤل اللازم الذي يملؤني يقيناً بأنّ الغد سيكون أفضل، ابتسامته الدائمة، حيويته، روحه المرحة، وأشياء أخرى تنبعث من وجهه لا أستطيع وصفها تجعله بطلاً في عيني. وكنت أرى في عينيه شوقاً لأبيه الذي لم يرد عنه خبرٌ حتى الآن، وفي وضعنا ذاك كان الهرب أفضل ما يتوقع لمن غاب. وكنا قد سمعنا أن جيشنا هرب بكل عتاده وقوته

العسكرية إلى السعودية استعداداً لشن هجوم تشيب منه الرؤوس.

قال إبراهيم وهو يركل الكرة إن أباه سيأخذه ليحارب معه في الجبهة، لأنه ولد قوي لا يعرف الخوف، واختفى بعد ذلك بيومين، ومن بعيد لم نعد نرى سيارة والده في مكانها تحت المظلة أمام بابهم. بقيت أنا وحميد نركل الكرة إلى بعضنا حتى يئسنا من مباهج الحياة التي سلبها الاحتلال.

أشارت علينا صفاء، في أحد الأيام، وهي تشاهدنا من أمام بابهم -وكنا جالسين على الرصيف يحدثني حميد عن والده- أن نلعب معها لعبة «الغميضة»، تطلّع لي حميد ليأخذ رأيي، فهززت رأسي.

- تعالا إلى الداخل (قالت وهي متحمسة) أولاً دوري أنا، سأعد حتى العشرة وأنا مغمضة العينين، وأنتما ستهربان وتختبئان داخل البيت، سأسأل: «جاهزان؟» قولا نعم أو لا، عندها سأبحث عنكما، ومن أمسكْ به أولاً وأحكَّ رأسه فسينضمُّ لي ونبحث عن الآخر حتى نجده ونحكَّ رأسه، وتنتهي اللعبة، ويأتي دور أحدكما ويفعل مثلما فعلت.. اتفقنا؟

- اتفقنا.

- اتفقنا.

كانت لعبة جميلة، أجمل من أي لعبة من لعب الحياة، ركضنا خلف بعضنا في أركان بيتهم، اختبأنا تحت طاولة الصالة ووراء المقاعد، وجدت صفاء مختبئة تحت سريرها، أطلقت ضحكة

مشاغبة قبل أن أحكّ شعرها ونبحث سوياً عن حميد حتى وجدناه أخيراً خلف الثلاجة، قفز عليَّ حميد وحكّ رأسي عندما وجدني مختبئاً تحت سجادة في المخزن، ضحكنا، امتلأنا سروراً، وأكثر من هذا هو اقترابي من صفاء ولمس شعرها المنسكب شلالاً على كتفيها.

* * *

مع تغلغل الاحتلال وسيطرته شبه المحكمة على البلاد، ومع انقطاع الأخبار الخارجية لأكثر من شهر، بدأ اليأس يتدفق إلى دواخلنا ويفيض على ملامحنا وعلى كلماتنا: «لا فائدة»، «انتهى كل شيء»، «لا يوجد أمل»، «سنموت».

ومع شحّ الطعام، أصبح الصمود أمراً يصعب على الجميع احتماله، وكان الأمران الأصعب على أبي هما نفاذ آخر سيجارة معه، وإطعامنا في الأيام التي لا نجد طعاماً حمامه الذي يحب.

أخبرني حميد منزعجاً عن خاله الذي زارهم فجأة وأقنع والدته بالمغادرة معه، لا يريد أن يبرح بيتهم لأنّ أباه أوصاه عليه، ويتعين عليه تحمُّل ثقة والده، لكنه مرغم على النزول عند رغبة أمه. وعرفتُ أننا سنهرب قريباً، فقط نحتاج إلى سبب نهائي يدفع أبي لحمل الحقائب.. رأيتُ هذا بعينيه، وسمعتُه من لسان أمي، ولمستُه في أخلاق الجميع.

وجاء السبب بعدما غاب أبي ليوم كامل، كادت أمي فيه أن تنتقل إلى بيت جدي، فعاد بجرح في ساقه منعه من المشي مستقيماً،

أصيب بطلقة نارية وعولج ممن كانوا معه، عاد مرهقاً، يعكس وجهه تعباً نفسياً هائلاً، وكانت عيناه تخفيان دموعاً غزيرة يقترب أوان سكبها.

- احزمي الحقائب.

قال لأمي، وبينما هي مندهشة من طلبه، أتبع:

- سنهرب في أقرب فرصة.

قد يكون وصل إلى أنه لا جدوى من المقاومة، أو لعلّ أسلحتهم نفدت، أو أنه اقتنع بأنها لا تجدي نفعاً أمام هذه القدرة الهائلة لأسلحة العدو، أو ربما استسلم للواقع.

وأتت أقرب فرصة بعد أربعة أيام.

- هل جهّزتِ الحقائب؟ سأل أبي أمي.

- تماماً.

- تأهبي.. سنهرب غداً في الليل.

حمل الحقائب في صندوق سيارة أمي، وجهَّزها بالوقود اللازم، شفطه -كما يفعل أحياناً- من خزانات سيارات الجيران التي تركوها خلفهم، وقضى نصف النهار يتفحَّص أجزاء الماكينة، يفكّ قطعة منها ويعيدها.

صعد إلى السطح بعد مغيب الشمس، وجلس حتى ساعات الليل الأخيرة هناك. فتح كل أبواب البرج للحمام وأطلقه.

صعدتُ إلى السطح ليلاً أستكشف ماذا يفعل طيلة هذا الوقت

هناك، وضعت أذني على الباب في لحظة تعسة، وأصختُ السمع، فسمعته يشتم الحمام الذي رُبِّيَ على البرج ورفض مغادرته.

- يا بنات الكلب اذهبن بعيداً.

كان يرمي أشياء لم أتبينها، ويضرب على خشب البرج ليذعرها وتطير.

- حتى أنا سأهرب، لا طعام، لا أمان، ماذا تردن؟ اذهبن عليكن اللعنة.

وسمعته يبكي كالأطفال ويقول:

- اذهبن.. اذهبن.. لا أريد أن أراكن بعد اليوم.

ثم غاب في نوبة بكاء ملأت السطح حزناً لم يتفهمه الحمام.

وفي الصباح خرج بصحبة كلبه، وعاد وحيداً يكفكف دموعه.

* * *

طرقت باب حميد في آخر العصر، فتحته صفاء، وعندما رأتني ابتسمت تلك الابتسامة التي ما زلت أبحث عنها، أخبرتني بأن حميد يساعد أمها في حزم الحقائب، شجعني وجهها على الاقتراب من عتبة الباب، فسألتها، والسماء غائمة توشك أن تنهمر:

- هل سيأخذكم خالك إلى السعودية؟

- لم يخبرنا إلى أين، قال لأمي احزمي حقائبكم وحسب.

- وإذا عاد أبوك فكيف يعرف أنكم مع خالك؟

- تركت أمي له رسالة على طاولة الصالة.. وأنتم هل ستهربون الليلة؟

- سنهرب بعد قليل. (قلت بحزن)

- حقاً؟

وضع يده على ظهري، وقال:

- انتبه لنفسك سلمان.

أوشكت دمعة أن تفرّ من عيني لو لم أتداركها برفع نظري إلى الغيم، وموتٌ ثقيلٌ حارقٌ يسمونه الوداع يغصّ حلقي، ويقبض صدري، ويجفف لساني، ويبلل عيني.

- وأنت حميد اهتم بنفسك وبأختك.

ما إن أكملت هذه الجملة حتى فاجأنا دويٌّ هائل خلف شارعنا، انبطحتُ على الأرض، ووقف حميد يبحث في السماء عن مصدره، كان دوياً شيطانياً ملعوناً اهتزت له الأرصفة والأبواب والنوافذ وكل شيء مستقرٌّ بطبيعته. ركض حميد إلى مكان الانفجار، تماماً في زقاق السيارة المتهالكة، وركضت خلفه لا إرادياً أصرخ:

- حميد عد.. عُد لا تذهب.. لا تذهب حميد.

فأكمل كأنه لم يسمعني، وتبعتُه كأنني لم أصرخ.

وجدنا حريقاً يضطرم في أحد البيوت، غطّى بدخانه الزقاق بأكمله، وخلّف في الهواء رائحة بلاستيك محترق.

وقفنا أمام البيت نشاهد ألسنة اللهب، تخرج من فجوة كبيرة أحدثها الانفجار في الجدار، تحرق الأثاث وتنفثه دخاناً أسود كثيفاً يلعق الجدران.

وما هي إلا لحظات حتى شعرت بشيء يهز الأرض من تحتنا،

على أنني لم أسْتبِن ما هو إلا أنني خمنت أنه مكروه. اقترب هذا الشيء وأصبح يهز الأرض أكثر.

- فلنرجع حميد.

صرخت وقد تملكني الذعر.

- انتظر، قد يريد أحد المساعدة.

قال وهو يقترب من البيت أكثر.

- هذا البيت خالٍ، لا يوجد فيه أحد، هرب أهله قبل شهر.

كذبتُ.

كانت ألسنة اللهب قد طالت وخرجت من النوافذ وعلا لهيبها.

- حسناً.. هيا بنا نرجع.

حينما قرر الرجوع، ظهر الشيء الذي يهز الأرض من بين الدخان كوحش عملاق. كانت أول مرة نرى فيها دبابة، وكان منظرها الحديد بشعاً ولا يلائم طبيعة المكان.

تجمدنا من الهول، وحينما اقتربت منا أكثر برز لنا تصميمها العقربي المثير للهلع. لم أستطع الهرب، شيء ما أطبق على ركبتيّ وكبح انطلاقي.

صاح حميد:

- اهرب.

انطلق مبتعداً، وبقيت متجمداً في مكاني لا أعي ما يجري لي. شلَّت إرادتي فجأة، وضعفت حواسي عن العمل، اقتربت

الدبابة مني أكثر، وأصبح رأس الذي يقودها بارزاً في مقدمتها جهة اليسار.

عاد حميد وجرني من يدي، سقطت، فسحبني من ياقتي حتى استجبتُ له ببطء. أثناء هذا التعثر أطلقت الدبابة قذيفة أخرى على المنزل المحترق خلفنا، سحبت الهواء من رئتي فتوقفت عن التنفس للحظات.

للحظات دخل كل ما هو أمامي إلى دائرة الحلم، كأنني أرى كل شيء من طريق نافذة كونية تُفتح من عالم آخر، كأنني لست موجوداً هنا.

صُمّتْ أُذني تماماً، إلا من طنين داخلي، توقف وعيي عن فرز ما هو واقعي عما هو غير حقيقي، وعن ترجمة معطيات حواسي.

زحفت على الأرض ككلب ضال تحاصره مجموعة صبية عابثة، اختلّ عقلي فتبعثرت كل صور الذاكرة أمامي، أول كلب قتلته يكشّر عن أنيابه، صبي بيده رمح يمده باتجاهي ويتهيأ لغرسه في رقبتي، والسماء سوداء والأرض تهتز.. إنها النهاية.

تدخلت يد حميد تعيد لملمةَ بعثرةِ رأسي، فتحتُ عيني فوجدتُه يصفعني لأستفيق، كان صراخه خالياً من ذبذبات الصوت، لم أسمعه ماذا يقول، شفتاه تتحركان بكلمات ليس لها لفظ، والدبابة تقترب، وتطلق قذيفة أخرى أدخلتني في غيبوبة، غيبوبة على شكل دوامة تدور وتدور وتدور، وتسحبني معها إلى الأسفل، إلى قعر خالٍ ومظلم ومصمت، حيث اللاشيء يتجلى في معناه الأكمل، حيث العدم.

لم أستفق منها إلا وأنا في حضن أمي في السيارة، يقودها بنا أبي في طريق رملي ونحن نغادر الكويت ليلاً.

لا أعرف ماذا حدث بالضبط، هل جرّني حميد إلى بيتنا، أم انتابتني قواي الخفية وركضتْ بي بعيداً.

كنت مصدوماً ومطروحاً في حضن أمي، في حين كان أبي يقود في الظلام.

لمّا استعدت حواسي، نطقت بمشقة:

- أين حميد.. أين حميد؟

كانت نفسي جافة ومتهشمة، حتى إنني بالكاد بكيت:

- أين حميد.. أين حميد؟

سألتني أمي عمّا ألمّ بي؟ لم تعرف ما حدث، كل ما تعرفه أنها سمعت دوي ثلاثة انفجارات تلاه إطلاق نار كثيف، وأنها كادت تموت من الرعب عليّ، وهمّت تخرج بحثاً عني لولا أنّ أبي منعها وخرج وهو يعرج متكئاً على عصا ينبش بها عني الشوارع، وأنني عدت في المغرب وحدي، مبلولاً ومترنّحاً على غير طبيعتي، فحملتني إلى السيارة واستعجلت أبي الهرب فوراً قبل أن يكثر خطر العدو حولنا.

أعرف أنه أنقذني للمرة الثانية، لكنني لم أجد في ذكرياتي أي مشهد لما حصل في زقاق السيارة المتهالكة، من الممكن أنني كنت فاقداً الوعي ولم أُحِطْ بشيء مما حدث، لكن كيف وصلت إلى البيت وحدي؟ كما تقول أمي.

طوال تلك السنوات كان هذا اللغز يمعن في تلغيز نفسه، إلى أن أصبح سراً من أسرار الحياة الكبرى، كالروح، والموت، والأحلام، كما لو أنه صفحة اختفت من كتاب، والكتاب لا يفهم إلا بهذه الصفحة.

طالما شعرت بأنني لو أعرف ماذا جرى فسأعرف كل هذه الأسرار معاً.

* * *

مع شروق شمس اليوم التالي كنا قد دخلنا الحدود السعودية مع مجموعة أسر أخرى، ليست أسرة حميد من ضمنها.

استقبلتنا لجان اللاجئين الكويتيين، وتدبروا لنا كلّ مقومات المعيشة. تبرع لنا أحد السعوديين بمنزل شعبي في أحد الأحياء المتوسطة في مدينة الدمام. مرت أربعة أشهر ليس فيها يوم لم أحلم فيه بحميد وصفاء، كنت أراهما يلعبان، يدرسان، يطعمان الزرافة، يجلسان في مقعد السيارة الخلفي، يغنّيان «عبرت الشط على مودك»، وفي كل الأحلام كنت معهما وكانا لا يشعران بوجودي، أناديهما فلا يسمعان، أمسك بكتف حميد وأهزه في كل حلم فلا ينتبه لي، أصرخ بصفاء:

- صفاء هذا رأسي، هاتي يدك، حكيه وأنهي لعبة الغميضة.

لكنها لا تضع عينيها علي، وعندما أستيقظ أكون متعرقاً وفي نفسي حزنٌ يفوق مساحة صدري، وأجد في رأسي سؤالاً يعتصر روحي: ماذا حدث لحميد؟

كنت أفتش في كل الوجوه التي أشاهدها عن وجهين يعرفان لغة

قلبي وصياغة جُمل أحلامه، أمد صحن عيني متوسلاً حسنة من شبيه لملامحهما.

ضمرتُ، هزل جسدي، دكن جلدي، وتغيرت ملامح وجهي.

حاولت أمي أن تصلح من وضعي، فقامت تعطيني دروساً في اللغة العربية لم يأخذها عقلي على محمل الجد، فكانت توبِّخني وتنهرني بعصبية في كل مرة يخيّب استيعابي ظنها لشرحها المطوَّل. أصبحتْ تبكي كثيراً وتتبرم، وتقطيبة منهكة لا تفارق جبينها، تنهر الخادمة لأتفه الأسباب، وتلوم نفسها بصوت عالٍ لأنها لم تهرب مع إخوانها الذين لا تعرف أين هم الآن.

ولم يكن أبي سوى كومة عظام داخل جلد بالٍ ينفث الدخان عند عتبة الباب في أغلب الأوقات، كثير الشجار مع أمي التي تسببت في إخراجه من وطنه الذي يريد أن يموت فيه.

كانت أمي تأخذني في بعض الأوقات إلى حديقة عامة قريبة من مسكننا، للترويح عن نفسي ولترى بعينها أنني لا أزال صبياً سليماً يُحسن التأقلم، وفي الحقيقة لم أتأقلم مع الواقع، ولم أكن ألعب مع الصبية في الحديقة، كنت رافضاً هذه الحال رفضاً داخلياً يتمثل في صورة انزعاج دائم، بمعنى أوضح لم أشعر بأنني في وطني، كنت مثقلاً بالغربة، وفي هذا الشعور حِمْلٌ كافٍ ينوء به قلبي. غير هذا كنت أرى في تسامح السعوديين معنا وسرعة استجابتهم لنا نوعاً خفياً من الهوان، ليس شكاً في نبل دوافعهم، بل لأنه دليل على أننا لم نعد قادرين على مساعدة أنفسنا، التشرد هو التشرد، واللجوء هو الضعف، واليد العليا أفضل من اليد السفلى، أحنى الشعور بالضعف

ظهر كبريائي، وأذلَّ أعز الأحلام عليّ؛ لو سألني أحد حينها ما هو الوطن؟ فسيكون جوابي نابعاً من حنيني: هو بيتنا وشارعنا وأصدقائي ومدرستي وجيراني. إذ إن الوطن ليس مجرد حدود تؤطر مساحة أرضية كما تعرِّفه الأوراق السياسية البلهاء، وإنما هو المكان الذي تنشأ فيه الذاكرة من تكوّن مجموعة ذكريات تجعل لكل إنسان شخصيته المستقلّة و«أناه» الخاصة.

كنا نرى بعض الكويتيين في الحديقة، فننجذب لهم كما لو أننا نعرفهم. تميل أمي صوب النساء وتسألهن عن آخر الأخبار، ويسألنها عن آخر الأخبار. كنت أجلس بجانبها وهي تبادلهن الأحاديث، أتطلع بمرارة إلى قسوة الأيام في وجوههن التي تبحث عن خبر يشحذ تبسمها.

حدث في أحد الأيام أن رأيت ناصر مدلول قرب لجنة توزيع المساعدات على اللاجئين الكويتيين، عرفته رغم ثوبه السعودي وشماغه الأحمر الذي يلفه على رأسه بطريقة الصبية السعوديين، في الحقيقة لم يكن ناصر، كان صورة من صور الهزيمة، وتجسيداً حياً لضياع الوطن، كنت سأناديه لولا أن ذكرياتي معه في شارعنا اعتصرت في ذاكرتي، فسال حزني عن صمته بكلمات على هيئة دمع. ها هو شخص آخر، غير أمي وأبي، يعرف حميد.

4

مع أولى زغاريد التحرير، عدنا إلى البيت، وكنت متلهفاً لألقي هذا العبء الذي ترزح تحته روحي، لأرى مشية حميد الواثقة من جديد، لأسأله عما حدث في ذلك اليوم.

ولما دخلنا الحدود، ولمسنا الأرض التي نحبها وتحبنا، صرخ أبي صرخة لم أميزها هل هي ضحكة أو بكاء، ثم توقف على جانب الطريق ونزل يسجد ويعفر وجهه بالتراب، وهي المرة الوحيدة التي رأيتُه يسجد.

كان الطريق مليئاً بجرة الموت وعذاباته، آليات عسكرية كريهة معطوبة على جانبه، وآثار دمار على الشوارع والجسور، وقمامات مكدسة في كل مكان.

ولما اقتربنا من الجهراء حلّ الليل علينا، ولم ينفك إلا بعد أكثر من شهر، كان دخاناً يشل النَفَس.

كان شارعنا خالياً عندما دخلناه، يسكنه الصمت والوحشة، ولكن الدمار لم يطله. بيتنا سليم لم تمسسه يد، وحين اقتربنا منه وجدنا كلب أبي رابضاً ينتظره عند الباب.

بكى أبي عند رؤيته، ونزل من السيارة فاحتضنه، وركضت أمي تتفقد بيتها مع الخادمة بحذر وهي تمسح دموعها، وقفزت أنا أطرق باب حميد.

طرقته فلم يفتح لي أحد، وطرقته بعد قليل فلم يتحرك شيء خلفه، وطرقته لثلاثة أيام متتالية دون رد.

قررت أن أقفز من فوق الجدار، لكنني خفت من شيء ما، شيء لم أواجه نفسي به، وهو أن أجدهم جثثاً في الداخل.

عدت للجلوس على عتبة بابنا والتوجه نحو بابهم والانتظار والحلم.

بعدنا بأسبوع بدأ الجيران يتوافدون تباعاً، وارتسمت البهجة على وجه شارعنا من جديد. عاد ناصر، حيدر، وإبراهيم، والبقية اكتملوا بعد شهر، إلا حميد ظلّ غائباً مثل حلّ اللغز.

* * *

تسلقت مع ناصر سور بيت حميد، ذات عصر، قاطعاً بذلك توصيات أمي وتحذيراتها المضخمة من الألغام التي قد تكون زرعت فيه، وجدت أكواماً من الأتربة تملأ المكان في الداخل، تجاوزت الحوش الذي مشيته أول مرة مع أمي وراء أم حميد، طافت بأنفي رائحة بيتهم أول مرة، وجدنا الباب الداخلي مقفلاً، حاولنا عبثاً فتحه فلم نقدر، استدرنا مع الممر الداخلي الذي يؤدي إلى المطبخ، أتذكر عندما كنا نتسابق فيه أنا وحميد أيام الاحتلال، وهناك عثرنا على نافذة المطبخ مكسورة.

قال ناصر وشَفَتُهُ ترتجف:

- يجب ألا ندخل.

كانت رغبتي بمعرفة أين حميد أكبر من خوفي، فليكن ما يكون، مرَّ شهران من الانتظار ولم يظهر لهم خبر، لا يهم ماذا سيحدث، المهم أن أجده فقط، لهذا أجبته بحزم:

- أنا سأدخل، أما أنت فقف هنا.

قفزت من النافذة إلى داخل البيت، وكان صراع النور والظلام في الداخل مخيفاً وضارياً، وجدت الغبار قد غطى الأرضية الزرقاء للمطبخ وأحالها تراباً حقيقياً. تقدمت حتى تجاوزت باب المطبخ،

وأصبحتُ في الممر المؤدي إلى الصالة، أربك خطاي السكون المميت للمكان. الألوان ذابلة، والأثاث صامت ولا ينبض بحركات حميد وضحكات صفاء كما كان من قبل، كما أن رائحة الغبار جاثمة على الهواء بشكل كاتم، دخلت غرفة الضيوف، التي جلست فيها مع أمي في أول زيارة، خلا منها صوت أم حميد وذوقها الراقي. هممت بالصعود إلى الأعلى إلا أن شيئاً منعني، لست متأكداً من أنه الخوف، ولا من أنه الإحساس المفاجئ بالوحدة، فقد أرى حميد وصفاء بمنظر لا أقبله لهما، وهذا ما قد أكون خائفاً من أنه يقتلني.

عدت إلى ناصر أخبره بأن كل شيء سهل في الداخل، وطلبت منه القفز معي، كنت أريده أن يسبقني إلى النظر في غرفة حميد، كي يُطلعني إذا كان هناك شيء أكره حدوثه قد وقع، فأكفُّ عني الأذى الذي سيلحقني من نفسي، إذا رأيته، طوال حياتي.

صعدنا السلم، أتقدم ناصر بحذر، درجة درجة، حتى وصلنا إلى الطابق العلوي، وكان نور الشمس يدخل بيسر من نافذة مفتوحة في الصالة العلوية، مما جعل الرؤية ممتازة، وأعطى للمكان بعض الطمأنينة.

وجدنا كل الأبواب مغلقة، ما عدا أبواب دورات المياه، دخلت أولاً غرفة أم حميد وأبيه، كان كل شيء في مكانه، السرير المزدوج والدولاب الكبير والأريكة في المنتصف، ودولاب التسريحة؛ لولا الغبار اللعين لقلت إنهم أغلقوه أمس. فتحت باب صفاء ووجدت ألعابها وسريرها، كلٌّ على حاله، وعندما وصلت إلى باب غرفة حميد، انتابني هلع على حين غرة، ارتجفتْ يدي كأنها

تحاول معصيتي، فتظاهرتُ بأنني سأستعمل الحمّام، وطلبت من ناصر أن يتفقد غرفة حميد، وضعتُ يدي على قلبي الذي راح يخفق بشدة جعلتني مع هدوء المكان أسمع صوت وجيبه:

- ناصر!

ناديته من الحمام ولم يجب.

- ناصر!

رفعت صوتي، وقد بدأ توتري يستجيب لمخيلتي التي رمت عليّ فجأة بعض التخيلات السوداوية.

- نااااصر!

صرختُ عالياً.

- نعم نعم أسمعك، لا ترفع صوتك.. تعال هنا.

- ماذا وجدت؟

- لا شيء، تعال.

دخلت غرفة حميد، فوجدتها كما هي عندما دخلتها معه أول مرة، انقبض قلبي عندما رأيت سريره، ودولابه، وكتب مدرسته، وكُرتنا تحت السرير، ولعبة الإيتاري بأسلاكها المتصلة بالتلفزيون، فتحتُ الدولاب فوجدته خالياً، اقتربتُ من المنضدة فوجدتُ مشطه وبه شعرات من رأسه، وعطره محكِماً غطاءه فوقه، فتحت العطر، وشممت رائحته، كأن حميد يخرج منها ويمشي أمامي.

- ما الذي يبكيك سلمان؟

- لا شيء.. دعنا نخرج الآن.

وقبل أن نقفز من النافذة، تذكرت أن صفاء أخبرتني برسالة وضعتها أمها على طاولة الصالة، رسالة كتبتها لأبي حميد تخبره بمكانهم إذا عاد ولم يجدهم. عدت إلى الصالة، وقفت فوق الطاولة أتفحصها، وجدت إطارات صورهم مغبرّة فوقها، وجدتها كلها إلا تلك الصورة الكبيرة لأبي حميد بلباسه العسكري اختفت، لم أجد أي رسالة، نفخت على الطاولة ومسحتها بيدي لعلها مختفية تحت طبقات الغبار، فلم أجد شيئاً. وعندما تراجعت للذهاب وطئت برجلي على شيء أصدر صوت خشخشة، كانت ورقة بيضاء مغطاة بالغبار حتى لم تكد تبين، قلّبتها، فظهرت لي الكلمات بشكل باهت، نفختها فوضح خط الحبر الأزرق فوق سطورها، وقرأت:

(حبيبي..

أتمنى أن تقرأ هذه الرسالة وأنت سالم من كل شر.

نحن بخير، لا ينقصنا إلا أن نراك بخير.

انتظرناك ثلاثة أشهر منذ خروجك. حتى أتى أخي أبو جابر وأقسم على أن نقيم معه في بيته حتى تعود، فمنذ شهرين نفد طعامنا ونحن الآن نأكل من طعام جارنا أبي سلمان الذي سيغادر الليلة إلى السعودية، أرجو أن تجد لي العذر.

سيأتي أبو جابر الليلة ويأخذنا.

ملاحظة: أفرغت دواليب حميد وصفاء، وتركت ملابسك جاهزة في حقيبة تجدها تحت السرير، خشيت أن تعود ولا تجد ما تلبسه.

مشتاقة لك جداً

قبلاتي

محبتك . .

الأربعاء

(14/ 11/ 1990).

كدت أطير من الفرح، إنهم بخير، لا بد أن ما أخبرتني به أمي صحيح، بأن الجيش الكويتي لم يسمح لأفراده بالعودة إلى بيوتهم حتى يستتب الأمن ويعود كل شيء سليماً، هذا ما أخّر أبا حميد عن الرسالة.

عدت إلى ناصر عند النافذة، وما إن تقدمت خطوتين حتى رجعت، وأخذت صورة حميد وصفاء بإطاريهما. خبأتهما تحت وسادتي ليشاركاني الأحلام بوجهيهما المبتسمين.

* * *

مرت الأسابيع، والأشهر سريعاً، لعبنا عدداً لا يحصى من المباريات بقوانين حميد، وبدأنا الدراسة بنظام مزدوج مكثف، فصلان دراسيان في فصل، مر الصيف بقلقه، وعبر الشتاء مرتبكاً، البلاد تعود من جديد بشكل أقوى وأسرع، شارعنا يضج بالحياة، صفصافة بيت جارنا الصغيرة تعاود الاخضرار، حمَام أبي يكثر، وبيت حميد ينغمس في الظلمة والنأي.

تسللت إليه كثيراً في نوبات اشتياقي، أشمّ عطر حميد في كل مرة، وأستعيد صورته، أتتبع خطواته الواثقة، أغمض عيني عند باب

غرفة صفاء، أتخيلها في الداخل مستلقية ترسم سنجابة تتسلق شجرة، أقول لها «أحبك»، أملأ روحي منهما وأغادر بخفة وهدوء حتى لا أزعجهما.

وكان البيت يزداد أمام عيني غباراً وفناء، ويوغل يوماً وراء يوم في الوحشة المرعبة، ويمعن في الضمور والضآلة.

وذات عصر جاء جارنا، صاحب البيت، أبو معاذ، وبصحبته مؤجّر جديد، وخبر حزين.

سأله أبي عن أبي حميد، فهز رأسه تأسفاً، ثم أخبره أنه لما استبطأه، وأراد أن يسلم البيت لمؤجر آخر، ذهب إلى عمله في أحد المعسكرات، وسأل عنه هناك، فقال بعض زملائه إنه في السجن بتهمة التعاون مع المحتل، وقال آخرون إنه لقي حتفه بحادث سيارة في ثاني أيام الغزو، ولم يقطع أحد منهم بصحة الخبر من عدمها.

صعقني الخبر حين ألقاه أبي على مسامعنا، بالكاد تمالكت دموعي، أبو حميد متعاون؟! مستحيل وألف مستحيل، قد يكون الموت أقرب إلى الصواب من الخيانة، فالموت قدر لا يسعه الإنسان، أما الخيانة فهي اختيار يأتيه الخسيس الذي يشبه وجه الضبعة في حديقة الحيوان، وليس هذا طبع أبي حميد، وليست الضبعة حيوانه الذي يرى فيه انعكاس نفسه، أحسست بأنني أعرفه وأثق به بشكل كامل لا يشوبه شك.

لمعت صورته بعيني وهو مبتسم مشرق الوجه، ولم أتذكره بعدها إلا وهو مبتسم.

- ولكن أين عائلته؟ سألته أمي.

- أخبروه بأن له نسيباً اختفى فجأة واسمه أبو جابر، هرب إلى العراق قبل بدأ قصف التحرير، ولا يعرفون عن أقربائه شيئاً غير هذا.

أخرجتُ الرسالة في الليل، وقرأتها لعلّي أجد إشارة تدل على مكان ما، قلّبتها فلم أجد أي شيء.

باع أبو معاذ أثاث عائلة شاكر وتبرع بقيمته للجان الخيرية، تسللت إلى بيته بين ضجة العمال، ودخلت غرفة حميد، قبل أن يجتثوها من العالم، أخذت العطر والمشط والكرة، وضممتها إلى صورته مع صفاء ورسالة أمه، ليصبح هذا كله، بعد ذلك، دافعي للبحث عنهم.

العلاقات لا تقاس بالزمن، لأنها شيء يحدث في الروح، والروح خالدة لا تعترف بتحديدنا لانقسامات الوقت وتشظياته في الدهر والعقد والسنة واليوم والساعة والثانية، هي مسّ يقع في الأرواح، حيث لا زمان ولا مكان، وحيث تكون الذكريات حيوات أخرى، أذكر هذا الآن لأنني تساءلت ذات يوم: لماذا أنا مخلص لسيرة حميد وصفاء بهذا الشكل الخيالي رغم أن علاقتي بهما لم تتجاوز السنة ونصف السنة؟ لماذا لا أستطيع نسيانهما؟

إنهما يعيشان في داخلي، لا أعرف كيف أعبّر عن ذلك، كأنهما من الأشياء التي تجعل مني: أنا.

بعد تخرّجي في كلية سعد العبدالله للعلوم الأمنية، مباشرة

استعنتُ برسمية زيي العسكري وهيبته، وبحثت عنهم في دوائر الحكومة، وفي سجلات الوفيات، وفي لجان البدون، فلم أجد لهم أثراً، كأنهم ثلج ذاب في كأس خمرة الكون.

بحثت لأكثر من سنة، حتى تعبت واستسلمت إلى استحالة العثور عليهم في سكرة هذا العالم، حتى نصحو منه عندما نموت.

وتنبأت بأنني سأعيش بقية حياتي غريباً وناقصاً، وبأن فراغاً في روحي سيتسع، وسيمهد لروحي الحائرة أن تحتار أكثر، وسيتسع ويتسع، حتى يشمل حياتي بأسرها، ولن تملأه أشياء الدنيا كلها، وسيستمر الفراغ بالاتساع إلى أن تتوقف آخر دقة في قلبي.

نحب أصدقاء الطفولة
لأنهم يذكروننا بنقائنا عندما كنا صغاراً،
قبل أن نفهم ونفكر وتتلوث نفوسنا برغباتها في
الفتن التي تبصقها الحياة

@alm3theb

حملني الرقيب أول نصار والصهيوني إلى المكتب، وهناك مدداني فوق الأريكة، ورشّا على وجهي ماء بارداً حتى عاد اتصال ذهني مرة أخرى بالوجود، وجدت المكتب يدور من الأعلى إلى الأسفل، ونوع ثقيل من الغثيان يتسلق بلعومي ويسحبه معه إلى الخارج.

لم أعِ ما حدث بعد؛ أخبراني بأنه أغمي عليّ أثناء تحقيقي مع المنشار، وبأنني سقطت فجأة عندما أطلتُ النظر إلى عينه.

صرخ نصار:

- لا بد أنه استعمل معك السحر.

جلس بجانبي وخفَّف نبرة صوته، وأكمل:

- كان يريد استخدامك بأفاعيله السوداء.

رأسي يدور ومعدتي تؤلمني، وكان طعم الخمر ورائحته قد عادا من جديد يغطيان لساني وأنفاسي. سألتهما:

- وأين هو الآن؟

- صرعتُه ثم كبلتُه بعدما رأيتُه يمتصك بسحره. (رد الصهيوني)

تنحنح نصار وقال بصوت متآمر:

- اتركه لي سيدي، وأعدك بأنني سأخرج سحره من مؤخرته.

نافسه الصهيوني، وهو يضع عينيه في عيني:

- بل اتركه أولاً لي، وسأخرجه من مسامات جلده.

صرخت بهما:

- لا يوجد سحر يا زبائل.

حاولت الوقوف، فاختلّ توازني وهويت، ثم حاولت مرة أخرى، فوقفت متماسكاً بمساعدة نصار، لكنني لم أقوَ على التحرك.

لا أعرف ما الذي حصل لي بالضبط، هل اخترقتُ الزمن وذهبت في رحلة إلى الماضي ثم عدت منه محملاً بعذاباته؟ أم أن عقلي خان ثقتي به، وأنه السحر والمنشار استعمله معي فعلاً، فولج به إلى ذكرياتي، واستعان بها ليوهمني بأنه أكثر شخص تأثرت به في حياتي، ويمكن أن أضحي من أجله وأطلق سراحه؟ لم لا يكون السحر فعلاً، ولمَ يكون هو؟

طلبا لي فنجان قهوة يمدّ وعيي بالكافيين الذي يسنده حتى يقف بعقلي على قدميه من جديد، شربته بجرعة واحدة غير مكترث

بلسعات حرارته، حيث كان تفكيري كله يتركز حول ما حدث، وبأنه قد يكون من فعل الخمر، والتي أكثرت منها، حتى انداحت رائحتها قوية في أنفاسي وعميقة في صدري.

وقفت مرة أخرى ومشيت أتوكأ على نصار، لم يكن جسدي هو جسدي.. لم أكن أنا نفسي.. تبّاً للخمر.

دخلنا الكازينو، وكأنني أدخله لأول مرة، تغيّرتِ الإنارةُ الغازية على نحو غريب، فأصبحتْ أقربَ، وتؤلمُ العينَ، الأرضية لم تعُد مستوية، وكان لون الجدران مثيراً للاشمئزاز، لم يكن في الحقيقة ثمة كازينو، كان هناك ذاكرة خاصة، استحضرت كل بقعة فيها لحظة مختلفة، الجدار كان مجموعة من مشاعر الخوف التي تركها المتَّهمون، وعلى الأرضية كان نثارٌ من أوجاعهم تراكم فوق بعضه، شممت رائحة آهات المعذبين تنبعث من الزوايا، رائحة كريهة ومؤلمة وكثيفة مثل الدخان، هل هذا هو المكان الذي قضيت فيه آخر خمس سنوات من عمري؟ كيف احتملت بشاعته طيلة هذه المدة؟ (لا بد أنه السحر) خمّنت. وكان في داخلي صوت آخر يقول لي: (الآن انتبهت أنك كلب ضال؟ أوهمت نفسك بأنك تُصلح فساد المجتمع وتحافظ على أمنه، لكنك تواري خلف هذا الوهم حقيقة فسادك).

كان حميد شاكر أو «المنشار» جالساً على الكرسي، وقد بدا بلباسه الممزق ضئيلاً وفي حالة حضور غائب، لم يستفق من صرعة الصهيوني بعد، تركت نصار واقتربت منه بحذر كأنني أقترب من خطر قد ينفجر في لحظة ويمزقني أشلاء، (ما كل هذا الخوف؟) سألت نفسي، ولأعيدها إلى ثقتها تذكّرت كلّ الوجوه المرعوبة التي

صفعتها هنا، كلّ الدماء التي سالت من الأنوف والأفواه، ذكرتها بقبضتي التي لا تتردد ولا تلين أمام من يجلس على هذا الكرسي مهما كان. تقدمت نحوه على مهل، دققت فيه، استعدت وجه حميد، وشدة بروز ملامحه ولُطفها، إنه هو ولا ريب، كانت عيناه تتحركان من وراء جفنيه، لا بد أنه يرى الذكريات نفسها التي جمعتنا، لا بد أنه يتذكر بيتنا وساحتنا والكرة التي تركناها تتدحرج في الزمن وما زالت تتدحرج بنا بلا قوانين، هو الآن يراني واقفاً عند عتبة باب بيتنا أنتظر منه كلمة تعيدنا معاً، لا بد أن لديه الكثير ليخبرني به، الكثير ممّا نملأ به فراغات الذاكرة، والكثير عن صفاء التي صعدت صورتها الآن بشكل فجائي إلى ذاكرتي، لكنْ هنالك شيء ما خطأ لم أستطع اكتشافه، يوجد خللٌ في نظام الحقيقة، شيء غير منطقي يحدث ولا أعرف ما هو على وجه التحديد! قد يكون شعوري ببراءتي التي يذكّرني بها الآن هي التي «تزغلل» رؤيتي وترفض أن تظهر جلية، أو أن نفسي لم تطِقْ رؤية ما انتهت إليه حاله فكرهتْ حقيقة أن يكون هو رغماً عن تصديقها لها، هكذا إذن.. سحقاً للنفس وسلطتها وسحقاً للعقل وانصياعة.

لا مراء في أنه هو، كما لا شك في أنني أنا.

دار رأسي مرة أخرى، ولكنها أقوى هذه المرة فتقيأت مستفرغاً كؤوس الخمرة التي شربتها وفنجانَي القهوة، أخذت أنظر إلى المخاليط التي تنزل من معدتي وتتسع بقعتها على الأرض وتتشكل منها مسارات متفرقة، مأخوذاً بفكرة خروج أمعائي وانتهاء كل هذا الانسحاق الذي أنا فيه.

سحبني الرقيب أول نصار بعيداً عن مزيج القيء، ثم أخذني إلى الخارج وهو يتوعّد سحر المنشار:

- سأخرجه من مؤخرته، سأخرجه من مؤخرته.

- لا يوجد سحر يا ابن الكلب.

تملكتني المشاعر ذاتها التي تملّكتني عندما أمسكني مرزوق في دورة مياه المدرسة، الخوف، اليأس، الحزن. حينها أنقذني حميد منه، أما الآن فمَن يُنقذني من نفسي، من ينتشلني من مصيري الذي أخذني إلى الأسفل حتى أصبحت خائفاً ويائساً وآسفاً على حالي كحثالة الخلق، حتى أصبحت مخلوقاً يستحقّ الدهس في الأحذية.

لا يفنى شيء في الحياة، كل ذرة لها دورتها المتواصلة الأبدية التي تعيد فيها إنتاج مكوناتها، حتى المشاعر تعيد تكرار نفسها كأنها تحدث أول مرة عندما تتهيأ لها اللحظة المناسبة، كرهت نفسي كما لم أكره شيئاً من قبل، ولاحت في رأسي صنائعي هنا، وفي أثناء عملي كضابط مباحث.

تركنا الصهيوني عند حميد، وأخذني نصار إلى المكتب، وأجلسني على الأريكة، نظرت إليه كأنني أكتشفه للتو، يا له من وضيع وخسيس!! ما هذا الوجه الحذائي الذي انتعلته ملامح قذرة؟ كيف احتملت النظر إليه كل تلك الفترة؟ الاعتياد، نعم هو الاعتياد على القاذورات فقط، فمن يمكث فترة طويلة في المجاري لا يمكنه شم رائحتها النتنة، وسيبدو له أنها ليست موجودة، لكنّ مع أول هبّة هواء نقي يستنشقها ويستعيد بها نقاء حاسة الشم، ستظهر له الرائحة كريهة وغير محتملة.

وكما لو أنّ المقت الذي أحسّتْ به ضحاياي تجاهي اجتمع كله داخلي في تلك اللحظة، قلت بصوت ليس لي:

- نصار.. أنت كلب.

تطلع إليّ بعين خاسئة، ومطّ شفتيه بابتسامة من ابتساماته المنافقة:

- ماذا قلت يا سيدي؟

- أقول أنت كلب ضال ونجس وتستحق القتل.

أعطاني ظهره ليخرج، فقمتُ مسرعاً، في قمة هياجي وكرهي لكل ما هو نصار على وجه هذه الأرض، وأخذت فتاحة الظروف، وغرستها برقبته، لم تكن حادة بالشكل الكافي لاختراقه ومن ثم قتله، إلا أنها أوقعته على الأرض. خار على الأرض، وأنَّ أنيناً مصحوباً بصراخ متقطع، فارتميتُ فوقه، ممسكاً رأسه بكلتا يدي، وضربته بالأرض، راحت قدماه تركلان الطاولة في منتصف المكتب، حتى فقد وعيه تماماً. قمت منه متهيجاً وغير مكتفٍ، وجعلت أركل فمه بعدد لم أحصه من الركلات وعيناي مثبتتان على وجهه وهو منقبض على تعبير يستحق الشفقة، كانت قوةٌ ما تعصف بي، ومن المؤكد أنني عندما كنتُ أركله كنتُ أركل الصلة التي تربطنا، وأحاول بها، وفي الوقت نفسه، أن أعيد غسل أحشائي وتلميعها بالفعل نفسه الذي لوّثها ولكن بشكلٍ عكسي ينتزع مَن كانوا متواطئين معي، تركتُه وعدت إلى الكازينو.

كنت أريد أن أنفجر غضباً بشكل لا يترك أحداً ممّن كانوا يعينونني على الفساد بغير أذى، فاض بي الحقد على نحوٍ لا يطاق،

وتجهّم كل شيء أمامي، كنت ملتهباً ولا أعرف صحة ما يجري، ولم يكن في بالي أي شيء غير إتلاف هذا المكان الآثم بمن فيه، على الرغم من أنني أكثرت من الخمر، لكنني لم أكن قد تعمَّقت في السكرة لدرجة فقدان السيطرة على ما كنت أقوم به، فقد يكون السكر عارضاً، ولكنه ليس السبب فيما فعلته. هل ما أفعله صحيح، أم خطأ؟ تلك مسألة أخرى لم تطرأ عليّ، لن أتوقف إلا بعد أن أنهي هذا كله.

وقمت أستفزّ نفسي في طريقي إلى الكازينو، وتساءلت: ما هذا المكان الذي ارتضيته، ما هذه القمامة التي أنا فيها؟ تبّاً لها، بل تبّاً لي.

دخلت الكازينو وأنا أتأجج حقداً وألهث غضباً، وجدت الصهيوني منشغلاً بإيقاظ حميد، كان يرش وجهه بالماء، ممسكاً بشعر ناصيته ويهز رأسه، لم يعر اضطرابي اهتماماً، فطالما رآني على هذه الحالة في هذا المكان، وشاهد من قرب نوبات جنوني واستعار طبعي، فما أنا الآن عنده إلّا أنا كل مرة، راغباً في جرعة من ألم الآخرين تعيد إليّ سكينتي وصفائي.

رحت إلى الدولاب الذي يصفّ به عدته، وأخذت منه قضيباً فولاذياً يستخدمه كخازوق، ولم تكن سوى ضربتين على رأسه حتى فار دمه متدفقاً، وسقطت قامته الضخمة ساكنة على الأرض.

كان حميد قد بدأ يستفيق، ولم أكن أدري ماذا أفعل بعد ذلك! لم أخطط لشيء، فكل ما جرى كان دون ترتيب، وكأنه قدر وقع ولا طاقة بي لردِّه. سقيتُ حميد ماء، وفتحتُ عنه القيود، ثم ذهبتُ إلى

المكتب لأطّلع على نصار، وعندما وجدته هامداً، أخذتُ مسدسي من صندوق الأمانات تحت مكتبي وأغلقتُ الباب.

سيأتي العقيد قريباً، هذا شيء مؤكَّد، ويجب أن أخطط لإنهاء الأمر برمّته، فكرت أن أقتل الجميع وأترك آخر رصاصة لرأسي، لمَ لا؟ صحيح أنني لم أقتل امرئً قط، ولكن القتل ليس أسوأ فعل قد يرتكبه الإنسان، فهناك أفعال يكون القتل بجانبها صفعة، أو ركلة عابرة.

(سأترك حميد يهرب أولاً، ثم أقوم بمحو هذه الدنيا بالضغط على هذا الزناد)، فكرة تألقت برأسي وبدت حكيمة.

رجعت إلى الكازينو، وكان حميد مستنفَد القوى بشكل كامل:

- هات يدك، ضعها على كتفي، سأخرجك من هنا.

وضع يده وراء رقبتي، ونهض بصعوبة، وعندما تقدم معي بضع خطوات، سقط علينا شيء ثقيل بغتة وأوقعنا على الأرض. نهضتُ سريعاً لأجد الصهيوني، يحملق بي مثل ثور هائج، وبعدما وضع يده على مكان الضربة وردّها أمام عينه ورأى الدم بها قال بغيظ، كازّاً على أسنانه:

- تريد أن تهرِّبه هاه؟ عرفت أنك متواطئ معه منذ شاهدت وجهك عند رؤيته.

وقبل أن أرفع المسدس في وجهه ارتمى عليّ وضمني إليه ضمة شلتني عن الحركة، وراح يعصرني بكل قوته مطبقاً على بدني بسواعده المشعرة والقوية. انحسر عني الشعور بالحياة، وحلّ مكانه ضباب رمادي أخفى عنّي كل شيء، ارتطمتُ بالأرض. دار رأسي،

جثا فوقي وقد غيّبه الغضب. . قلت لنفسي إنه الموت، لأن ما رأيته في عينيه لم يكن شيئاً ينتمي إلى العقل، كان هيجاناً غريزياً وبهيمياً كالحيوان، (الآن سألقى حتفي)، أضفت بنفسي. حاولت التملص من قبضته القوية ولم أفلح، بل لم يكن بمقدوري فعل شيء، وراح يلكمني بوجهي بقوة، طعم دم في فمي، وضعت يديّ أمام وجهي لأحميه من اللكمات، إلا أن كل ضربة عليها كانت تصله كأنها ضربة مباشرة، وكان رأسي يضرب الأرض من جرّائها، شعرت بالدم يخرج ساخناً من أنفي وبأن لثتي تنزف. . ألمٌ لا يطاق. بينما كنت أتلقى هذه الضربات، اهتزّ الصهيوني من فوقي، وتوقّف عن اللكم، ودوّت ضربة سمعت بها صوت قرع عظم جمجمته، فخرّ على الأرض وهو ينخر، ظهر من ورائه حميد ممسكاً بالقضيب الفولاذي. عاد حميد وارتمى على الكرسي، وجلس ينظر إليّ نظرة متسائلة وحذرة، كأنه يقول: (ماذا الآن؟)، بالكاد وقفت، وكان الصهيوني تحت قدمي هامداً وفاقداً الوعي.

أخذت حميد إلى الخارج، مارّاً بالممر وهو يعيد صدى خطواتي بإيقاع مؤسف، متعدياً النظارة التي يقبع في داخلها البؤس، ومن بعدها نقطة استقبال أحوال الشرطة ببطونهم الكبيرة المتورمة. لم نجد في المخفر إلا شرطيين اثنين فقط، وكان البقية قد تسربوا إلى أهلهم وفق ترتيب خاص يديرونه بينهم بسرّية. كانا مشغولين بمتابعة مباراة على شاشة التلفزيون، لم ينتبها لنا ونحن نجتاز الباب الزجاجي ونخرج إلى الشارع، أبقيت حميد وراء السيارة، أوصيته بألا يتحرك مهما كان الأمر طارئاً، وعدْتُ إلى مكتبي لآخذ حمّالة

مفاتيحي التي نسيتُها معلّقةً على قفل الأدراج، وعندما رجعت مجدداً نحو السيارة كان الشرطيان لا يزالان مندمجين بشكل كامل مع وقائع المباراة، وكان الجو بارداً، وكان حميد قد اختفى.

نعم، اختفى هكذا بكل بساطة.. توقفت عند باب السائق أجيل النظر في المواقف، أمسكت رأسي وسألت نفسي: (ماذا يحدث؟)، أحسستُ بأن ما مرّ بي لم يكن سوى حلم، (أين ذهب؟)، هكذا ينتهي الأمر دائماً، (هل يتوجب أن أبحث عنه من جديد؟ هل قدري كلما أكون معه هو البعد عنه؟). بصقت دماً على الأرض، وراح الهواء البارد يمسح على ظهري ويلجُ مساماتي ويقشعرها. جلستُ في داخل السيارة، أتفحص وجهي بالمرآة، كان الدم متخثراً عند منخاري الأيمن، مخضباً خدي وزاوية فمي، لم يكن ثمة كدمات بعد، كان احمراراً غامقاً قرب عيني اليمنى، ألحّتْ بي رغبة بالبكاء، تركتها تتنفس، بكيت كأنني طفل أضاع طريق العودة إلى البيت، وكان البكاء في تلك اللحظة عملية مجهِدة ومؤلِمة، ولأول مرة أشعر بأن عقلي توقف عن العمل.

ما إن أدرت محرك السيارة، حتى توقفت سيارة العقيد إبراهيم أمامي، كنتُ شخصاً اكتشف أنه يعيش من أجل أن يكون لا شيء، لا يفكر إلا كيف يمحو الأشياء التي من خلالها يمضي الزمن، أردت أن ألغي مأساة الحياة وخساراتها، لهذا انتظرت أن يترجل العقيد من سيارته ويعبر بخطواته الطاووسية وبجبروته المزيّف الشارع أمامي إلى بوابة المخفر، وفي اللحظة التي وقف بها أمام مقدمة سيارتي يتطلعني في داخلها، وأثناء ما كان يريد الاقتراب مني، اندفعتُ بها بكل

قدرتها على دفق الوقود وإحراقه، وصدمته فطار عالياً قبل أن يرتطم بالأرض وينزلق عليها.

جلست أتأمله، من خلف المقود، وهو ممدَّد في الشارع ويتخبط بيديه وبساقيه محاولاً النهوض، تناثرتْ حاجياتُه حوله، وتكشّط وجهُه من الاحتكاك بالإسفلت، ورأيت خطوطاً حُمْراً متعرجة من الدم على خده، وتمزقت بدلتُه الرياضية من عند فخذه وظهرت الشقوق على الجلد من خلفها.

نتفتُ ريش الطاووس الذي بداخله.

لم يكن القتل ذاته هو دافعي لأن أقتله، بل ما يسببه القتل من إهانة للقتيل، فلكل نفس قدسيتها، وكفى بالقتل تدنيساً لها بأن يجردها من صورة الكرامة التي تظهر على أي شيء حي مهما كان وضيعاً. اكتفيت من هذا القدر الكبير من الهوان الذي أنزلته باسمه وبرتبته وبمنصبه، شاعراً أنني حققت غايتي، فتركته واستدرت خارجاً من مواقف المخفر.

قدت سيارتي وأنا ألعن كل شيء خلفته حطاماً، متوجهاً إلى الشقة لأكمل لعناتي وسكرتي في كأس واحد، ثم أختمها برصاصة في رأسي.

استقللت الطريق السريع، وكنت أفكر على نحو مشوّش بماذا استفدت من عمري الذي قضيته معذِّباً الأجساد، نعم الأجساد، لأنني كنت أتعامل مع الجميع على أنهم مجرد أجساد لها طُرُقُها العجيبة في الإحساس بالألم متى ما سُلكت بقسوة، وإنها تستقيم بالضرب وتخرج ما في داخلها بالسحق. قدت بأسرع ما يمكنني،

كان الطريق خالياً تقريباً كما هو عادةً عند الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، كنت أنظر إلى المباني والبيوت من حولي كأنني أراها لأول مرة، ظهرت على شكل مخلوقات بشعة الإنشاء، تلتَهِمُ أحلام الناس وتمضغها ثم تلفظها خارجها، سلسلة من الطوب الجائر، يؤطره إسمنت مسلَّح صُنع خصيصاً ليناسب صلادة مشاعر الإنسان، ولتكوين عيوبه. (نحن قاذورات.. براز) صرختُ، أحسستُ برغبة عارمة في الوقوف بمنتصف الشارع وشتم الجميع، وتحقيرهم على ما هم عليه من انحطاط وإنسانية، لعلي قستُ ما فيَّ على كل الناس، وعمّمت نفسي عليهم جميعاً، فجعلتهم نسخاً مكررة مني.

وأثناء قيادتي بهذه الأفكار الجنونية وبهذه السرعة غير المعقولة، عندما وصلت إلى أحد الجسور، أخذ الكون بالاهتزاز كأنه سيتلاشى ويختفي، ثم دار كأنه يعيد نفسه إلى الوراء، ثم تدحرج مثلما تدحرجت كرة أخي عند موته، ثم استقرّ فجأة وركد؛ أصبحت السماء في الأسفل، وكل شيء مقلوباً ومبعثراً، وكانت أنوار أعمدة الإنارة «تزغلل» عيني، وأضواء السيارات تسطع على وجهي وتجهرني. خبا الوجود فلم أعد أرى إلا ظلام العدم الأبدي يحيط بي من كل جانب، كأنني لم أعد شيئاً، كأن الساحر ذا القبعة أعادني إليها، لم أعد أسمع إلا الأصوات فقط، أصوات إطارات السيارات وهي تتوقف بشكل مفاجئ، وأصواتاً أخرى تتفقد سلامتي:

- هل هو حي؟

- اتصلوا بالإسعاف.

- اسحبوه خارج السيارة.

- انتبه.. انتبه، دم.. دم يسيل من ظهره.

تخيّلتها أصوات كلاب ضالة جاءت لتنتقم مني لموتها بأن تحافظ على حياتي لتميتني أكثر. توهّمتها تغرس رمحاً سكّينيَّ الرأس في ظهري، تسحبه وتغرسه، وتسحبه وتغرسه حتى انقطع الوعي تماماً، والتهمتني الأعماق في دوامة لولبية تجذبني إلى الأسفل، وغُرت معها أعمق.. وأعمق..

وأعمق...

وأعمق...

وفي عمق الأعماق، حيث الضغط الشديد والساحق كاد يفجر طبلتي أذنيّ ويخرج روحي من فتحتي أنفي، وحيث الظلام الكلي والسرمدي يلغي دلالة الأشياء والزمن، وصل وعيي إلى مكان عميق في الذاكرة، إلى المكان الذي تخزن به الحياة نفسها جديدة ومفعمة كأنها تحدث الآن، بعيداً عن الوجود الدنيوي وهشاشته، فظهرت ذكرى حميد، تسبح مضيئة في منتصفه، في آخر يوم رأيته فيه، يوم كنّا عند زقاق السيارة المتهالكة، الذكرى التي اختفت من رأسي بشكل مبهم، كأنني تواطأت مع النسيان وتعمدت طمسها في غياهبي.

رأيت كل شيء.. عندما دوّتِ القذيفة الثالثة، صعقت وأغلقت كل مداخلي ومخارجي، جرّني حميد من ياقة ثوبي حتى أبعدني عن طريق الدبابة، هطل المطر، ورعدت السماء فوقنا بغضب، وبعد ذلك خرج رجال مسلحون من حيث لا نعلم، رجال متلثمون بـ«شمغهم»، أثاروا إطلاق نار كثيف على الدبابة، وكان حميد يرجوني بالهرب، وكنت طريحاً أبكي هلعاً جانب الزقاق.

رب سلمان.. هيا.. اهرب وإلا قتلونا.

كن أعي ما يدور حولي، كنت داخل نفسي كأنني أرى
ن مكان بعيد عما يحدث.

لني حميد، ثم تكاثف صوت الرصاص واختلط بصوت
ما لو أنه صداه، ومشى بي حتى وقعنا بجانب السيارة
ة. شيء ما ألمّ به، وجعله يزحف حتى التصق بي، وقال

رجوك سلمان، أرجوك اهرب.

وجهه يعتصر، وكانت شمعتا عينيه تخبوان بسرعة وتوشكان
طفاء، وبقعة دم كانت تتسع تحته على التراب.

ميد يحتضر، حميد يموت» التقط عقلي هذه المعلومة
علي، لكنني رأيته منظراً عادياً، طالما رأيته يحدث في هذا
لم أعرف جنونئذٍ كيف أتصرف.

ن جسده يتلوى ويتشنّج، وأنفاسه تتقطع، ورأسه يهمد
على الأرض. وبالكاد قال، بشكل ما زلت أشكّ في أنه
صنع الهذيان الذي كنت فيه:

هرب يا كلب!

ربت، نعم هربت مثل كلب ضال نجري وراءه، لمستْ
» انعكاساً بنفسي. لم ألتفت ورائي، ركضتُ مبتعداً،
ن من الزقاق إلى الشارع، وتركتُه إلى مدخل شارعنا، هربتُ
حات المطر بأسرع ما أستطيع، وصوت خطاي على الإسفلت

المتبلون يرعبني كأنني ملاحق من مخلوقات وهمية تتخطف رقبتي.
تجاوزت شارعنا.. تركت بيتنا ورائي.. لم أتوقف.. كأن الهرب
يعني أن أعود بالزمن، أن أركض نحو الشمس حتى أدركها، وأجرّ
حبلها الذي في مخيلتي لأعيدها إلى وقت العصر، الوقت الذي
نلعب به في الساحة، الوقت الذي أعيد حميد فيه إلى الحياة بعدما
رأيت بعيني كيف اختار الله له أن يموت.

عبد الله البصيّص

ذكريات ضالة

العلاقات لا تقاس بالزمن...

هي مسّ يقع في الأرواح، حيث لا زمان ولا مكان، وحيث تكون الذكريات حيوات أخرى، أذكر هذا الآن لأنني تساءلت ذات يوم: لماذا أنا مخلص لسيرة حميد وصفاء بهذا الشكل الخيالي رغم أن علاقتي بهما لم تتجاوز السنة ونصف السنة؟ لماذا لا أستطيع نسيانهما؟

إنهما يعيشان في داخلي، لا أعرف كيف أعبّر عن ذلك، كأنهما من الأشياء التي تجعل مني: أنا.

الغلاف: تصوير حسن الموسوي/تصميم محمد النبهان

ISBN 978-9953-68-726-1

9 789953 687261

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com